

مع المصطفى في دار هجرته

- هجرة . . . وتاريخ .
- مسجد المهاجر وبيته .
- غزوة بدر ، وموازن القوى .
- الإسلام في الجبهات الثلاث :
- مع عصابات يهود .
- مع الوثنية القرشية .
- مع المنافقين .
- ودخل الناس في دين الله أفواجا

في السنة الثالثة عشرة للمبعث . كانت الهجرة التاريخية التي اختارها
 ثانی الخلفاء الراشدين . « عمرُ بن الخطابِ » بدايةً للتاريخ الإسلامي .
 تقدیراً لجلال الحدث الذي كان منطلقاً لتحول حاسمٍ وخطيرٍ في تاريخ
 الإسلام .

وعلى امتداد الزمان . يحتفل المسلمون حيناً كانوا . بمسهب عام
 الهجرة . دون أن يفوتهم لمخ ما كان لها من أثر بعيد في حركة سير الدعوة
 الإسلامية . ودون أن يخطهم إدراك ما أعقب تلك الهجرة التاريخية من
 تغير في موازين القوى بين حزب الله وبين الوثنية الباغية من قريش .

وإن فاتهم ، أو فات كثيراً منهم . وعى حركة التحول ذاتها ،
 وأعوذهم فهم التفسير التاريخي لتلك الهجرة الفاصلة بين أخطر مرحلتين
 من عصر المبعث

ولقد مضى عليها ما يقرب من ألفي عام ، وكلما بدأت السنة القمرية
 بهلال المحرم . تحركت أقلام تحيي الذكرى الخالدة ، وشدّت أبصار
 وقلوب إلى خطوات المهاجر العظيم ما بين مكة ويثرب ، منذ خرج ذات
 نهار - وقد بلغت محنة الاضطهاد أقصى مداها ، بعد ثلاثة عشر عاماً
 من المبعث - متجهاً إلى بيت صاحبه الصديق أبي بكر ، وأسرّ إليه أن
 الله تعالى أذن له في الخروج والهجرة .

هتف الصديق : « الصحبة - يا رسول الله الصحبة » .

وبدأ التأهب لرحيل عاجل :

بعث أبو بكر يدعو « عبد الله بن أريقط » ، وكان دليلاً ثقة

خبيراً بمجاهل الطريق ، فدفع إليه براحلتين يرعاهما لميعادٍ موقوت .

ودعا المصطفى ابن عمه . على بن أبي طالب . فاستخلفه بمكة ليؤدى عنه ودائع كانت للناس .

ثم لما حانت ساعة الرحيل . وقف المصطفى على مرتفع هناك بيت صاحبه . فرنا إلى البيت العتيق طويلاً . ثم أشرف على أم القرى فاستوعبها بنظرة حزينه وقال مودعاً :

« والله إنك لأحبُّ أرض الله إلى الله ، وإنك لأحبُّ أرض الله إلىَّ .
ولولا أن أهلك أخرجوني منك ، ما خرجت » .

وتسلل الصحبان من خوخة في ظهر البيت فأخذا طريقهما إلى غار يعرفانه في جبل ثور بأسفل مكة ، فأقاما فيه ينتظران أصدقاء الرحيل .

وجاء اليوم التالى يحمل الأنباء عن خروج نفر من طواغيت قريش لمطاردة المصطفى ، وفي الخبر أنهم بلغوا غار ثور وهموا بأن يدخلوه ، لولا أن صدّهم عنه نسيج عنكبوت على فتحته ، وحمامتان وحشيتان وقعتا عليه .

قال الصديق للمصطفى : « لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا »

فكان جوابه صلى الله عليه وسلم :

« لا تحزن إن الله معنا » .

وفي هداة المساء من الليلة الثالثة لمقامهما في الغار ، جاء الدليل يسوق الراحلتين حذرًا ، فأناخ قرب فتحته . وخرج المصطفى وصاحبه ، وجاءت « أسماء بنت أبي بكر » بطعام لهما . فلما أعوزها عيصام تشد به الزاد إلى الرحل ، حلت نطاقها فشقتة نصفين ، علقت الزاد بأحدهما وانتطقت بالشق الآخر .

وسرى الراكب في تلك الليلة التاريخية آخذاً طريق الجنوب من أسفل مكة ، وكان غير مطروق .

وودعهما أسماء ذات النطاقين ، ثم تلبثت تُتبعهما عينيها وقلبيها ، حتى أبعدا ، فعادت إلى بيت أبيها مستخفية حذرة . وهي توجس خيفة من المطاردين .

ولم تمض لحظات حتى فوجئت بطرقات عنيفة تلح على باب البيت ، وإذا نفر من قريش ، فيهم أبو جهل بن هشام ، يسألونها في غلظة :

« أين أبوك يا بنت أبي بكر ؟ »

أجابت : « لا أدري والله أين أبي »

وما كذبت ، فقد كان آخر عهدا بأبيها مع المصطفى عليه الصلاة والسلام ، منطلقين من الغار إلى حيث لا تدري أين بلغ بهما المسرى في مجاهل الفلاة . . .

وفجأة ، بغتتها لظمة " فاحشة على خدّهما من يد أبي جهل ، طرحت قُرَاطها . . .

وانصرفوا يتهددون ويتوعدون . . .

ومضت أيام " وليالٍ ، لم يكن لمكة فيها من شاغل إلا تلك المطاردة العنيفة ، تعدو فيها قريش وراء مهاجر أعزل إلا من إيمانه .

وتضاربت الأنباء في الطريق التي أخذها ، حتى جاء الخبر من يثرب أن المصطفى بلغ دار هجرته آمناً .

ووعت أذن الزمان ما لانزال نردده في كل عيد للهجرة ، من هتاف المدينة في ترحيبها بالمهاجر العظيم ، وما وجد في دار هجرته من مأمّن ونصر .

في واقع التاريخ أن الهجرة لم تُنهَ الجولة الفاصلة بين الإسلام ،
والذين تصدوا له بالعداوة والكيد والحرب .

وإنما كانت بداية لهذه الجولة الفاصلة ، بقدر ما كانت أثراً
لما سبقتها من أحداث ، وتحركاً إلى موقع جديد بعد جولة مريرة استغرقت
ثلاثة عشر عاماً في البلد العتيق .

فإذا كان في الناس من يتصورون أن منافذ الخطر قد سُدت بمجرد
انتقال المصطفى من دار مبعثه ، وأن الإسلام صار بآمن من كيد أعدائه
بمجرد أن أوى إلى الأنصار في دار هجرته ،

فالذي يعرفه الواقع التاريخي أن الصدام المسلح بين الإسلام والوثنية
القرشية لم يبدأ إلا بعد الهجرة . وبدأ معه في الوقت نفسه ، نضال شاق
بالغ الصعوبة والخرج ، مع عصابات يهود التي تصدت للإسلام بعد
الهجرة ، وألقت في المعركة بكل ما تملك من أسلحة خبيثة مسمومة .

والذي تعرفه السيرة النبوية ، أن المصطفى والذين آمنوا معه من المهاجرين
والأنصار ، واجهوا مع الهجرة مرحلة خطيرة معقدة ، كان عليهم فيها أن
يخوضوا حرباً في أكثر من جبهة ، وأن يستبسلوا في الجهاد تحت لواء
عقيدتهم من حيث يأتيها الخطر : من مواقع مكشوفة سافرة ، وأخرى
خفية ماكرة . . .

* * *

والتحول التاريخي لموقع المعركة ، لا يمكن فهمه على الوجه الشائع
الذي يحسب أن الهجرة عزلت مكة عن مسرح الأحداث ، وفيها البيت
العتيق ، أول بيت عبده فيه الله على الأرض ، وفيها المركز الديني
الأكبر للوثنية العربية .

بل تظل مكة في صميم الصراع الدائر مهما ينتقل موقعه إلى شمال
الحجاز .

ويظل البيت العتيق قبلة المهاجرين والأنصار في دار الهجرة ،

كما كان قبلة العرب على تتابع الأجيال من قديم العصور والآباد .

» » »

وفي مكة كان مهدهُ المصطفى ومبعثه

وفيهما مستقر الوثنية العربية من قديم موغل في القدم . ولم تكن الأرسقراطية القرشية التي ورثت وظائف الشرف الدينية في أم القرى ، وحققت بها نفوذها على القبائل ، مستعدة لأن تتخلى عن نضالها للإبقاء على الأوضاع الموروثة والأعراف الراسخة ، والدفاع عن دين الأسلاف . وما تجنبت الصدام المسلح مع الإسلام ، إلا رعاية لما للبلد العتيق من حرمة جعلته مثابة حج القبائل العربية وسوقَ مواسمها التجارية .

وكان في حسابها أن تواجه الخطر بالمفاوضة والمساومة ، ثم بالإلحاح في إيذاء المسلمين وتعذيب المستضعفين منهم ، وتحذير كل وافد إلى مكة في الموسم ، من الإصغاء إلى ما جاء به محمد من كلام وصفوه بأنه السحر يفرق بين المرء وولده وزوجه ، وأخيه وعشيرته

ثم كان الحصار المهك وسيلة أخرى من وسائلهم في مقاومة الدعوة ، والترصد لمن يحاول الهجرة من المسلمين ، ومطاردتهم حينما ذهبوا .

حتى كان عام الحزن ، إيذاناً بحتمية التماس منفذٍ من الأسوار التي سَدَّتْ الطريق .

أحس المصطفى بموت زوجه خديجة وعمه أبي طالب ، فراغ مكانهما في دنياه إحساساً باهظاً ، حتى لتقول إحدى الصحابيات :

« يا رسول الله ، كأني أراك قد دخلتْكَ خِلمةٌ لفقد خديجة » .

واجتاحه شعور بالغربة في بلده وبين أهله وعشيرته .

لكن بيعة العقبة الكبرى هي التي وجهت مؤشراً الأحداث نحو

يثرب .

وجاءت الحجارة التاريخية فنقلت ، يثرب ، إلى صميم المعترك وحددت
مكانها منه ودورها فيه
دون أن تنأى بمكة عن مكانها في مركز الثقل لمصير التحول .

احتشدت « يثرب » في انتظار المهاجر العظيم الذي لم يكن هناك أدنى
شك في وجهته ، برغم ما ذاع من توغل المطاردين في طريق مكة إلى
يثرب . دون أن يظفروا بأثر منه :

يهود قد أرسلوا راصدهم يرقب مقدم النبي المهاجر ، فأخذ مكانه على
مشارف يثرب

وغير بعيد منه كان المهاجرون والأنصار من أوس وخزرج . يخرجون
كل صباح بعد الصلاة إلى ظاهر المدينة . فما يزالون ينتظرون حتى تغلبهم
الشمس على الظلال فيعودوا إلى دورهم .

واليهودى قائم هناك في مرصده لا يريم .
وإذ هم يدخلون بيوتهم ذات يوم بعد أن لم يبق ظيل ، سمعوا اليهودى
يصرخ بأعلى صوته :

« يا بنى قيلة ، هذا جدكم قد جاء » .

وسرت البشرى في أنحاء دار الهجرة ، فتعالى الهتاف من الأحياء
العربية يشق أجواز الفضاء ترحيباً بالمهاجر العظيم .

ومن عجب أن أذن التاريخ لم تنمط في ذلك الموج الهادر ، هذه
الصرخة بأعلى الصوت :

« يا بنى قيلة ، هذا جدكم قد جاء » .

وقيلة هي أم الأوس والخزرج . والجد بلغتهم هو الشيخ والزعيم

* * *

صرخة اليهودى المعلنة عن قدوم المصطفى إلى دار هجرته ، زلزلت الأرض

تحت يهود في مستعمراتهم الناشئة في شمال الحجاز : من حى « بنى قينقاع » في قلب يثرب . إلى قريظة وخيبر وفدك وتيما ووادى القرى . . .

ورجَّ صداها حصون الأبلق : والوطيح : والسلام ، وناعم ، والقَمَوص . . . وعشراتٍ غيرها من الحصون المنيعة والآطام العازلة ، التي أقاموها « على رءوس الجبال والقلاع ليتحصنوا بها وقت الحرب »

وبدأ من اليوم الأول للهجرة ، تأهبهم لدورهم الحبيث في مقاومة الإسلام . . .

وقبل أن نمضى مع المصطفى عليه الصلاة والسلام في دار هجرته ، نقف عند نقطة التحول لتندبر منطقته ونلمح أبعاده دون إيغال فيها . . .

لم تكن الهجرة الأولى إلى الحبشة ، ضئلاً بحياة ذلك الرهط من المسلمين الأولين ، وإنما كانت هجرة في سبيل العقيدة بذلاً واحتمالاً ، وسلاحاً شهروه في وجه الوثنية الغاشمة ، لتدرك مدى ما يطيق المؤمنون احتماله من التضحية والبذل في سبيل ما آمنوا به .

أما الهجرة التاريخية إلى يثرب ، فلم تكن بذلاً واحتمالاً فحسب ، ولكنها كانت كذلك ، تحركاً إلى موقع خطير على حافة الحرب ، فقد أذن الله في القتال للمسلمين الذين أوذوا وظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله .

وكان الإذن بالقتال من حيث لم تكن قريش تحتسب أو تتوقع . وقد مضى على المبعث أكثر من عشر سنين ، والمصطفى يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويواجه جبروت الوثنية بكلمات من وحى ربه ، كانت على المدى الطويل سلاحه الذي يشهره في وجه الوثنية .

وقد أمنت قريش جانب المسلمين فيما تحرص عليه من تجنب الحرب في البلد الحرام . فلم يخطر لها على بال ، أن نبي الإسلام يمكن أن يخاطر فيخوض بالقلعة العزلاء من صحابته ، معركة حربية مع الوثنية المعتزة بما لها من سلطان ، ودونها قوة باطشة من العدد والسلاح .

من هنا صكَّت سمعهم آياتُ الإذنِ للمسلمين في القتال ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون :

أو يريد محمد أن يفرض عقيدته بالسيف ؟ كأنه لم يتل من قبل ، من كتاب دينه :

« لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ »

« فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ

إِلَّا الْبَلَاغُ . . . »

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ،

أَفَأَنْتَ تَكْفُرُهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ »

وفي أخذة المباغته ، فاتهم أن يدركوا مغزى الإذن للمسلمين في القتال :

دفاعاً عن حقهم في حرية التدين .

وتقريباً لمبدأ الإسلام في حرية العقيدة .

وانتصاراً للذين أوذوا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا :

ربنا الله .

وإلزاماً بمسئولية الجهاد في سبيل الحق والخير ، في مواجهة الحشد
الكافر والقوى العاتية الباغية :

« أذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِدُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظَالِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ
لَقَدِيرٌ » الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا
رَبَّنَا اللَّهُ . وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ
صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا
وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ
إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا
بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ * وَإِنْ
يَكُذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ *
وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ
مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ *
فَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ
عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ

بِنَهَا . فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي
الصُّدُورِ «

صدق الله العظيم

• • •

وهذه هي الجبهة الأولى التي كان على الإسلام أن يخوض معركة فيها ،
إثر الهجرة .

ضد الوثنية القرشية الباغية التي وَعَتَ منطلق الهجرة أتم الوعي ،
فانكفأت بعد خيبة المطاردة الشرسة ، تعجى قواها استعداداً للصدام .

دون أن يتصور أحد من الفريقين ، أن الهجرة كانت نهاية مريحة
للدجولة المكية التي استغرقت ثلاثة عشر عاماً ، أجهدت المسلمين أذى
واضطهاداً ودمقاطعة وحصاراً ، بقدر ما أجهدت قريشاً وأرقت لياليتها ،
واستنفدت كل ما لديها من وسائل .

وهل كانت قريش بحيث تغمض لها عيناً ، وقد أعجزها بكل
عتوها وجبروتها أن تنال من دعوة أذلت كبرياءها وسفهت أحلامها وحقرت
آلهتها ؟

أو كانت بحيث تأمن على وجودها الجاهلي ودينها الموروث ، وهذا
النبي المهاجر قد أخذ موقعه الجديد في عاصمة الشمال . يهدد طريقها
التجاري إلى الشام . مصمماً على أن ينسخ برسالته دين قومه ويسحق
صروح وثنيهم . وبعده رجال مؤمنون قد باعوا الدنيا بالآخرة .

فَنَهِم يَرُونَ الْمَوْتَ فِي سَبِيلِ عَقِيدَتِهِمْ مَجْدًا وَانْتِصَارًا ؟

هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ . . .

وَلَوْ تَرَكِ الْقَطَا لَيْلًا لَنَامَ ! .

على أن هذه الجبهة لم تكن أخطر ولا أضرى من جبهة أخرى كانت تنتظر الإسلام في دار هجرته .

يهود كانوا هناك . يرصدون مجرى الأحداث في ذعر وقلق .

لقد لبثوا طوال العهد المكي يتعلقون بالأمل في أن ينهك الصراع أهل مكة ، مسلمين ومشركين . فيخلو لهم الطريق إلى أم القرى ، وفيها أسواق العرب التجارية الكبرى : عكاظ ومجنة وذو الحجاز ...

لكن بيعة العقبة الكبرى خيبت هذا الرجاء ، كما خيبت الهجرة أملهم في أن يبقى الإسلام محصوراً في البلد العتيق ، بعيداً عن شمال الحجاز . ولم يبق لهم إلا أن يتربصوا بالإسلام ويكيدوا له بكل ما وسعهم من خبث وشر ودهاء .

ثم كانت هناك جبهة ثالثة من المنافقين الذين ابتلى بهم الإسلام في دار هجرته . ولي المصطفى من عنتم ونفاقهم وتخاذلهم ، أشد مما لى من طواغيت المشركين .

وكان رأس المنافقين في المدينة : «عبد الله بن أبي بن سلول» مولى يهود وحليف الشيطان .

ذلك هو منطق الهجرة : بذلاً واحتمالاً واستبسلاً وتحركاً إلى موقع جديد خاض فيه الإسلام معركته في الجبهات الثلاث ، جهاداً بالنفس والمال ، حتى جاء نصر الله والفتح . . .

استحدثت يثرب بهجرة المصطفى إليها. اسماً إسلامياً جديداً هو المدينة : مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وكان وصوله إليها قبيل الظهر من يوم الاثنين ، وقد مضت اثنتا عشرة ليلة من ربيع الأول ، في السنة الثالثة عشرة للمبعث .

وأقام عليه الصلاة والسلام في « قُبَاء » بظاهر المدينة ، في بني عمرو بن عوف ، أيام : الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، أسس فيها أول مسجد في الإسلام .

ثم ركب ناقته « القمصواء » يوم الجمعة وسط حشد من المهاجرين والأنصار ، فأدركته صلاة الجمعة في حيّ بني عوف بن سالم ، فوصل بالصحابة أول جمعة بالمدينة .

وأرخص العنان لناقته وهي تشقّ الزحام ، ولم يادر أحدٌ يومها أين يكون مقام المصطفى ، وكل بيوت المدينة مفتوحة له ترحب به ، وإن لم يكن له صلى الله عليه وسلم دار هناك . . .

وبدا الموقف صعباً :

كلما مر بجيٍّ من أحياء الأنصار بادر إليه الرجال يسألونه شرف النزول فيهم ، وهو عليه الصلاة والسلام يتحرج من إيثار حي على آخر ، فيقول معتذراً شاكراً :

« خلّوا سبيل ناقتي » .

حتى إذا مر بجي بني عدى بن النجار ، توقعوا أن يكون لهم من خيولهم لأبيه عبد الله بن عبد المطلب ، ما يسوّغ حظوتهم بالشرف الذي رنت إليه كل بيوت الأنصار .

هتفوا : « يارسول الله ، هلمّ إلى أخوالك » .

وثابت عليه الصلاة والسلام يملأ عينيه من هذا الحى ، ويسترجع ذكريات رحلته الأولى إلى يثرب . حين جاءت به أمه ، آمنة بنت وهب « من مكة وهو في السادسة من عمره ، لتزيره قبر أبيه الثاوى هناك .

»

وتخطى بصره الجموع الزاخرة التي حفتت بركابه ، وتعلق بطيف مائل لا يغيب .

ومع الذكريات . طوى سبعة وأربعين عاماً من عمره ، ليجد نفسه غلاماً غص الصبا . يعود مع أمه في رحلة الإياب إلى أم القرى . ومعهما جاريتها « بركة أم أيمن » فما قطعوا بعض مراحل الطريق حتى أملت بأمه وعكة طارئة . ثم أسلمت الروح بين يديه في بقعة موحشة من الفلاة ؛ بين يثرب ومكة . . .

وحملت بركة جثمان آمنة إلى قرية « الأبواء » فدفنوها في ثراها . . . واستأنف الرحلة إلى مكة . واجماً صامتاً حزيناً مضاعف اليم .

»

وهن وراء نحو نصف قرن ، أتاه صدى من حشجة الاحتضار التي روعته في الفلاة . مختاطة بهتاف الترحيب وأناشيد الاستقبال .
وبنو النجار يكررون دعوته .

« هلم إلى أخوالك ! »

قال وما يزال يملأ عينيه من ساحة الحى التي كانت ملعباً حدثته أياماً ، مع لداته من صبية بنى النجار :
« خذلوا سبيل ناقتى »

»

إلى أين إذن ؟

إلى حيث تمضى به القصواء .

وقد خطت وثيداً تشق الزحام حتى توقفت غير بعيد . وبركت في مربد
هناك لسهل وسُهَيْل ابني عمرو .

فحط المهاجر رحله ، وقام يصلى . . .

على ساحة المربرد الذي بركت فيه « القصواء » حين دخل المصطفى دار هجرته ، أمر عليه الصلاة والسلام أن يُبنى هناك مسجده . ثانياً الحرمين وزيارة المسلمين على مر اللسنين والدمهور .

وتنافس المهاجرون والأنصار في بنائه بما تيسر من مواد البناء : اللبن والجريد والليف . وبعض الحجارة والخشب .

والمصطفى معهم : يشارك ويوجه ويُعِين . وقد يمد يده الكريمة فينفض الغبار عن لحى بعض الصحابة . داعياً للمهاجرين والأنصار . فيرددون دعاءه مرتجزين :

لا عيشَ إلا عيشُ الآخره

اللهم ارحم الأنصارَ والمهاجره

ولم يستغرق البناء أكثر من أيام معدودات ، ومن حول المسجد بُنيت تسعُ حجرات تفتح على ساحته ، لتكون دار المصطفى المهاجر .

وكان مبنى المسجد والحجرات بسيطاً متواضعاً ، بعضه من حجارة مرصوفة ، وبعضه من جريد يمسكه الطين ، والسقف كله من جريد .

ذكره سبط المصطفى عليه الصلاة والسلام « الحسنُ بنُ علي » ، فقال :

« كنت أدخل بيوت النبي صلى الله عليه وسلم وأنا غلام مراهق ، فأناال السقف بيدي »

وشدّت خشبات بالليف . فكانت سريراً لمن اصطفاه الله خاتماً
للأنبياء . . .

وغير بعيد من المدينة والحجاز ، كانت قصور الحكام والأمراء
والأغنياء . في الحيرة وغانم واليمن ، وفي مصر والحبشة وفارس ، تعلو
ساذمة شاذمة . ساطعة بأضواء البذخ والترّف ، فتخطف أبصار الدنيا
عن ذلك المبني البسيط المتواضع الذي لم يلبث ستمائة سنة أن كسف ضوء
كل ما عرفت الدنيا من قصور لكسرى وقيصر وفرعون ، أو نجاشي وملك
وإمبراطور .

وفي الأحياء اليهودية الناشئة في المدينة وفي مستعمراتهم بشمال
الحجاز ، دور مشيدة وحصون منيعة ، تطل على المبني البسيط المتواضع
لنبي الإسلام ، فيبدو لها فقيراً أشد الفقر .

ويلتقط أهلها ما يتلو المصطفى من كلمات ربه في الحث على الإنفاق
في سبيل الله ، فتذيع قائلهم الفاحشة : إن الله فقير ونحن أغنياء !

في تلك الأيام الأولى بدار الهجرة ، نزل المصطفى عليه الصلاة والسلام
في دار صاحبه « أبي أيوب الأنصاري » ريثما تمّ بناء المسجد والحجرات حوله .

أما صحابته المهاجرون ، فترلوا على الأنصار من الأوس والخزرج ،
وقد آخى الرسول بينهم ، واختار ابن عمه « عليّ بن أبي طالب » فجعله
أخاه .

وهكذا ذهب كل أنصاري بأخ من المهاجرين .

وذهب على بن أبي طالب بالمصطفى أخراً !
وأغلقت دور المهاجرين في مكة .
وتدركت مهجورة موحشة خلاء . . .

.. .

بعد أن تم بناء بيت المصطفى في دار هجرته ، بدت الحاجة ماسة
إلى زوج تملأ هذا البيت . وتبى للرسول عليه الصلاة والسلام سكناً
وملاذاً . فيما يواجه من أعباء الرسالة في مرحلتها الحرجة الصعبة .

وكانت « عائشة بنت أبي بكر » قد لحقت بأبيها في المدينة ، وقبل
الهجرة بثلاث سنين ، كان المصطفى قد عقد عليها بمكة ، ثم تمهل لم
ينقلها إلى بيته هناك . إذ كانت ظروفه وظروفها لاتعين على تعجيل بإتمام الزواج .

وقد سبقها إلى بيت المصطفى في المدينة ، أم المؤمنين « سودة بنت
زمنة بن قيس بن عبد شمس » التي مات عنها زوجها « السكران بن
عمرو » إثر عودتهما من هجرة الحبشة ، فأشفق الرسول عليها ومد إليها
يده الرحيمة ، يسند شيخوختها ويحمل عبئها ، بعد أن ناءت بما لقيت
من أذى وغربة وترمل . . .

وقنعت «سودة» بحظها من زوجها النبي : بر ورحمة ، لا حب وتآلف
وسكّن .

وأرضاهما كل الرضى ، أن يشرفها النبي فيدخلها بيته أمماً للمؤمنين . . .

وبقيت حياة محمد . صلى الله عليه وسلم ، في بيته ، تقف من ذكريات الزوج الحبيبة الراحلة « خديجة بنت خويلد » التي أوحشت دنياه منذ رحيلها . في عام الحزن ، بعد أنس عشرة هنيئة امتدت خمساً وعشرين سنة ، لم تشاركها فيها زوجة أخرى في بيت زوجها المصطفى أو قلبه ودنياه

• • •

وتباً مجتمع المدينة ليزف إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، عروسه الصبية الذكية « عائشة بنت أبي بكر » وتعلق بها الأمل أن تملأ في بيته وقلبه ، ذلك الفراغ الموحش الذي تركته أم المؤمنين الأولى .

وتم حفل العرس بسيطاً متواضعاً :

مضى محمد صلى الله عليه وسلم إلى منزل صهره الصدِّيق ، فجاءت « أم رومان ، زوج أبي بكر » بابنتها العروس بعد أن سوت شعرها وغسلت وجهها وطيبتها .

وقدمتها إلى زوجها المصطفى ، وهي تدعو الله أن يبارك له فيها وأن يبارك لها فيه .

ولم تُنمحر جزور ولا ذُبجت شاة ، بل كان طعام العرس جفنة من طعام ، هدية من « سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري » وقدحاً من لبن ، شرب الزوج المصطفى بعضه ، ثم قدمه إلى عروسه فشربت منه .

ونقلها إلى بيتها الجديد ، وما كان هذا البيت سوى حجرة من الحجرات البسيطة التي شيدت حول المسجد النبوي ، من اللبن والجريد . وأثاثه فراش من آدم حشوه ليف ، ليس بينه وبين الأرض إلا الحصير . وعلى مدخل الحجرة أسدل على فتحة الباب ستار من وبرٍ وشعر ! .

• • •

وفي هذا البيت البسيط المتواضع . بدأت « عائشة » حياتها الزوجية الحافلة . وشغلت مكانها المرموق في حياة الرسول والإسلام ،

ولم يكن وجود « سودة » على مقربة منها ، زوجة ثانية للرجل الذي تحبه عائشة بقلها البكر ووجدانها المرهف وعاطفتها المتوهجة ، يشغل بالها في كثير أو قليل . فما غاب عنها أن ليس لسودة في قلب زوجها مكان ! . وإنما الذي كان يشغل عائشة هو ذلك الحب العميق الذي حظيت به « خديجة » قبلها من الزوج المصطفى ، وتلك الذكرى الحية لمن استأثرت بكل عواطفه نحو ربع قرن من الزمان . . .

والزوج الحبيب يروض عائشة على أن ترضى منه بحظوتها لديه ، ومنزلتها في قلبه وفي حياته . . .

هل كانت « عائشة » طفلة ، كما يحلو لبعض المحدثين أن ينعتوها ، وهم يقيسون نضج المرأة في المجتمع العربي منذ أربعة عشر قرناً ، بمقاييس المجتمع الغربي في عصرنا ؟ .

الذي يعرفه تاريخنا ، أن عائشة في صباها الغض وأنوثتها الذكية ، بدأت من اليوم الأول لحياتها الزوجية تحقق وجودها في بيتها الحديد ، وتعي دورها الفذ في حياة زوجها الرسول القائد ، وتفرض شخصيتها على المجتمع المدني ، ثم على التاريخ الإسلامي الذي عرف لها أعمق الأثر في الحياة الفقهية والسياسية . والاجتماعية للأمة الإسلامية . . .

هل نسى المهاجرون وطنهم الأول في البلد العتيق ، مهد مولدهم
ومغنى صباهم ووشى آبائهم من قديم الحقب والأدهار ؟ .

هل انقطع ما بينهم وبين أم القرى ، وطروا ما كان لهم فيها من
ذكريات ؟ .

كلا !

لقد بقيت مكة مهوى أفئدتهم كما هى مهوى أفئدة الأنصار وسائر
العرب .

وما كان الفراق سهلاً ، ولا كان فى المهاجرين من ودعها إلا وقلبه
مشغل بالشجن . وكأنما كان المصطفى يعبر عما يجدون ، حين وقف ساعة
خروجهم للهجرة ، يستوعب مكة بنظرة حزينة ويقول :

« والله إنك لأحب أرض الله إلى الله ، وإنك لأحب أرض الله إلى ،
ولولا أن أهلك أخرجونى منك ، ما خرجت » .

وبرغم ما حفلت الأيام الأولى للهجرة ، من مراسم الترحيب والإخاء
وشواغل التنظيم ، كانت وطأة الحنين ترهق أكثرهم فترهف حساسيتهم
لتغير الجو ! .

والم بكثير منهم سقم وأجهدتهم الحمى ، وفى هذيان الحمى كان
المطوى من أشواقهم وحنينهم يتنفس مقلتاً من أعماق أفئدتهم إلى
السننهم !

تحدث أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر ، عن أول عهدهم بالمدينة
فتقول :

« كان أبو بكر وعامر بن فهيرة وبلال ، فى بيت واحد ، فأصابتهم

الحمى . فدخلتُ عليهم أعودهم . وذلك قبل أن يُضرب علينا الحجاب ،
 وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعث . فدنوت من أبي فقلت له :

— كيف تجدك يا أبتِ ؟

فرد مرتجزاً :

كل امرئ مصبح في أهله

والموت أدنى من شراك نعله

فقلت : والله ما يدري أبي ما يقول .

ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة فقلت له :

— كيف تجدك يا عامر ؟

فرد منشداً :

لقد وجدتُ الموتَ قبل ذوقه

إن الجبان حثفه من فوقه

قلت : والله ما يدري عامر ما يقول . . .

« وكان بلال إذا تركته الحمى ، اضطجع بفناء البيت ، ثم رفع

عقيرته ، يذكر مكة وربوعها :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةً بفرخٍ وحولى إذخر وجليلُ

وهل أردنُ يوماً مياه مجنةٍ وهل تبدون لي شامةً وطفيلُ

« فذكرتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمعت منهم فقالت :
إنهم ليهدون وما يعقلون من شدة الحمى .

فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم حبب إلينا المدينة كما حبيت إلينا
مكة - أو أشد »

* * *

ويح المشركين من أهل مكة ، ضلوا وظلموا ، واشتطوا في عتوهم
وبغيهم ، وأسرفوا على من أسلموا منهم .
وبقيت مكة مهوى الأفئدة :

لم يسئل عنها من هاجروا منها بدينهم ، ولم يغض من شأنها عتو الوثنية
الباغية .

وإن مكة لمهد النبوة ومنزل المبعث ، ومثابة حج العرب منذ عهد
الله سبحانه إلى إبراهيم وإسماعيل ، فطهرا بيته للطائفين والعاكفين والركع
السجود

* * *

في حساب التاريخ أن المواجهة الأولى التي كانت بين الإسلام
والوثنية في مكة . تختلف تماماً عما يواجهه في المدينة من معركة معقدة بينه
وبين أعدائه في ميدان ذي جبهات ثلاث : يلقي فيه حشود قريش في
صدام مسلح . وعصابات يهود في أوكارهم الخطرة : وجيوب المنافقين
الذين حالفوا الشيطان . . .

وتتداخل هذه الجبهات الثلاث زماناً ومكاناً ، فيزداد الموقف
تعقيداً وصعوبة وحرماً : من حيث لا يستطيع المؤمنون أن يتفرغوا للجهاد
في إحدى الجبهات . ثم ينتقلوا إلى غيرها . فيكون الأمر عليهم أخف
عبثاً وأيسر مشقة .

وكذلك يشق علينا ، فيما نحاول من متابعة المسير مع المصطفى في
دار هجرته . أن نمضي مع الأحداث من موقع إلى آخر من ميدان
المعركة ، بمعزل عن غيره من المواقع .

ويمكن القول مع ذلك ، إن الجبهة اليهودية بدأت تشحذ أسلحتها
المسمومة لحرب الإسلام ، من أول يوم للهجرة .

بينما تأخر الصدام المسلح مع الوثنية القرشية ، ريثما يتحدد مجال
الصدام ما بين مكة والمدينة ، ويتم التأهب له والاحتشاد ، فلم يبدأ إلا
في السنة الثانية للهجرة .

وكذلك تأخر ظهور الجيوب الخطرة للمنافقين ، ريثما سرى فيها
سم الشيطان بطيئاً خفياً . لم يكدي لدهظ إلا بعد أن ضرى واستشرى ، يهدد
الوجود الإسلامي في أخرج المواقف .

ذلك كله مما كان يدخل في حساب التاريخ ، حين بداني ظاهر الأمر
أن مكة وحدها هي مركز الخطر على الإسلام ، وأن له في يثرب مأمناً
من كل خطر ! .

فلنمض مع الأحداث إلى حيث نرقب منطلق الحرب في الجبهة
اليهودية التي لم تطق الصبر على الإسلام منذ تحول إلى دار الهجرة ، بل
أخذت زمام المبادرة إلى الكيد له ، من اليوم الأول .

* * *

لم يكن قد مضى على المصطفى في دار هجرته يوم " وبعض يوم ، حين انكمش يهود في دورهم ومجامعهم يرصدون الحدث الخطير ، ويحسبون ألف حساب ما وراءه من تهديد لوجودهم المغتصب هناك .

وفي بيت زعيم يهود « حُمَيِّ بن أنخطب » كانت العصابة في شغل شاغل بهذا المهاجر الذي احتشد عرب يثرب لاستقباله .

وبدا لابن أنخطب أن يتسائل هو وأخوه « أبو ياسر » في غلَس الفجر : ليتحققا من شخصية هذا النبي العربي ويستوثقا من أمره ، في ضوء ما أعطى كتابهم الديني من ملامح النبوة .

وكانت « صفية بنت حيي » هناك ، صبيةً مدللة ما تزال في بيت أبيها لم تر النبي بعد .

قالت بعد أن أسلمت ودخلت بيت المصطفى ، تسترجع ذكرياتها عن يوم الهجرة :

« كنت أحبّ ولدِ أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر ، لم ألقهما قط مع ولدهما إلا أخذاني دونه . فلما قدم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، المدينة ، غدا عليه أبي وعمي مغلسين بين الفجر والصبح ، فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس . فأتيا متعيين ساقطين يمشيان الهويني ، فهششت إليهما كما كنت أصنع فوالله ما التفت واحد منهما إليّ ، مع ما بهما من الغم . وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي :

— أهو هو ؟ .

قال : نعم ، إنه هو .

سأله عمي : أتعرفه وتُشَبِّته ؟ .

قال : نعم أعرفه . . .
وسأل عمي : فما في نفسك منه ؟
وردت أبي : عداوته ما بقيت »

ومن ذلك اليوم الأول للجهرة ، بدأ أعداء البشر يشحذون أسلحتهم المسمومة . ليحاربوا الإسلام في جبهة ماكرة ، أخطر وأضرى من الجبهة المكشوفة مع المشركين من قريش . . .

كان همُّ يهود ، أن يوادعهم الإسلام ريثما يفيقون من صدمة الهجرة ، ويتدبرون وسيلة الخلاص من هذا الدين الذي لا يمكن أن يسالموه .
وتعلق أملهم بأن يذكر النبي أنهم أهل كتاب وأتباعُ نبي مرسل ، والقرآن فيما سمعوا من آياته ، يقرر أنه مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، مقر بنبوته موسى وعيسى وإبراهيم وسائر الأنبياء ، لا يفرق بين أحد منهم .

وفي خُبثٍ ومسكنة ، تقدموا يرحبون بالنبي المهاجر ويسألونه الموادعة والأمان ، وله عليهم أن يكونوا مع أهل المدينة ضد أي عدوان عليها من وثني مكة .

وكان الضمان ، ما ليهود في المنطقة من مستعمرات غنية وتجارة يملكون قيادها ، وحصون مكدسة بالأموال ، فهم أحرص على سلام المدينة وأمن المنطقة ، من أهلها العرب الذين استترف يهود خيرات أرضهم الطيبة .

وأعطاهم المصطفى عهده بالموادعة والأمان على أموالهم وأنفسهم وحرية عقيدتهم ، مسجلا في كتابه إلى أهل المدينة إثر هجرته عليه الصلاة والسلام ومما جاء فيه :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

« هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم : بين المؤمنين والمسلمين من قریش و يثرب — المهاجرين والأنصار — ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم . أنهم أمة واحدة . . . »

« وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه . وإن المؤمن على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين . وإن المؤمنين أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم . ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن . »

« وإن ذمة الله واحدة ، يحير عليهم أديانهم . وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس . »

« وإن من تبعنا من يهود ، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم . وإن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسلم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله ، إلا على سواء وعدل بينهم . . . »

« وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وإنه لا يجير مشرك — من أهل المدينة وما حولها — مالا لقریش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن . وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة ، فإنه قوداً^١ به إلا أن يرضى ولي المقتول . وإن المؤمنين عليه كافة . ولا يحل لهم إلا قيام عليه . »

« وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً^(١) ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه

(١) المحدث : من أحدث في الإسلام تبديعة أو ضلالة أو فتن .

يوم القيامة . ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل . وإنكم مهتما اختلفتم فيه من شئء فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد صلى الله عليه وسلم .

« وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين . وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . مواليتهم وأنفسهم ، إلا من ظلم أو آثم فإنه لا يوتغ - يهلك - إلا نفسه وأهل بيته .

« وإن يهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف . وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف . وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني

عوف . وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف . وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف . وإن اليهود بني ثعلبة ما ليهود بني عوف . إلا من ظلم وآثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته . وإن جفنة بطن من ثعلبة ، كأنفسهم وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف . وإن البر دون الإثم . وإن موالى ثعلبة كأنفسهم . وإن بطانة يهود كأنفسهم

« وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ؛ وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ؛ وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم . وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين . وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الحار كالنفس غير مضار ولا آثم . وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .

« وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره .

وإنه لا تُجار قريش ولا من نصرها .
 وإن بينهم النصر على من دهم يثرب . وإذا دعوا إلى صلح يصلحونه
 ويلبسونه . فإنهم يصلحونه ويلبسونه . وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن
 ضم على المؤمنين . إلا من حارب في الدين . على كل أناس حصتهم من
 جانبهم الذي قبله .

« وإن يهود الأوس . مواليتهم وأنفسهم . على مثل ما لأهل هذه
 الصحيفة مع الر الحرض من أهل هذه الصحيفة .

« وإن البرّ دون الإثم . لا يكسب كاسب إلا على نفسه . وإن الله
 على أصدق ما أتى هذه الصحيفة وأبره . وإنه لا يحول هذا الكتاب دون
 ظالم وآثم . وإنه من خرج أميناً ، ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم
 أو آثم . وإن الله جار لمن برّ واتقى ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه
 وسلم »

» « «

والصحيفة وثيقة تاريخية شاهدة على استجابة المصطفى لما طلب
 يهود من موادعة وأمان وحلف وجوار ، وعلى احترام الإسلام حريتهم في
 العقيدة ، وتأمينهم على دورهم وأموالهم ، إلا أن يأتموا ويخونوا العهد
 ويظاهروا على المسلمين أعداءهم من مشركي قريش .
 بقدر ما هي شاهدة على أبعاد الجبهة اليهودية ، ومدى تغلغلهم في
 يثرب .

ولم تذكر مع ذلك غير البطون الناشئة في أحياء العرب هناك ،
 والمعدودة من مواليتهم . دون تعرض للعصابات الكبرى في المستعمرات
 اليهودية بخير وبنى النضير وقريظة وتناء وفدك ووادي القرى . بل لم تذكر
 كذلك الأحياء الخاصة بهم في صميم يثرب ، مثل حي بني قينقاع . . .
 فلنتابع الأحداث . . .

المدينة . عاصمة شمال الحجاز ، التي فتحت قلبها للمهاجر العظيم
وبايعته على الإسلام والنصرة والبذل ، كانت تتوجس الشر من العصابات
اليهودية التي مزقت الوجود العربي هناك قبل الإسلام .

والأوس والخزرج الذين فتحوا دورهم لإخوانهم المهاجرين من
مكة ، كانوا في ضيق بنفر من أشرف المدينة ، ترددوا في الترحيب بهذه
الهجرة التي غيرت الأوضاع وحولت مجرى الأحداث . ثم تابعوا قومهم على
الإسلام . بعد تردد وارتياب . دون أن يدخل الإيمان في قلوبهم ،
عقيدة وديناً .

وعلى رأس المنافقين « عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي » حليف
اليهود من يوم بعث .

لقد افتدى نفسه وواله بدفع رهائن اليهود إليهم ، حين هجموا - بعد
انتصار الأوس ، بمظاهرة يهود - على دور الخزرج يذبحون وينهبون . .

ومن يومها صار حليفهم الذي يدين لهم بحياته ، ويجدون فيه عميلاً
لهم يسخرونه في قضاء ما يريدونهم ، حتى فكروا في أن يتوجه ملكاً على
يشرب ، وعكف بعض صناعتهم في حياصة الصاغة اليهودي ، على إعداد تاج
لهذا المولى الحليف .

وجاءت الهجرة فبددت أماله وأملهم ، وشحنت نفسه بالحسرة على
تاجه المسلوب .

وذا صبح ، من الأيام الأولى للهجرة ، ركب المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى بيت صاحبه « سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري » يعوده من مرض ألم به .

وفي طريقه إلى بيت سعد ، مر بعبد الله بن أبي بن سلول ، في مجلس له وحوله رجال من أهله . فكره عليه الصلاة والسلام أن يجاوز المجلس دون أن ينزل ، فتنزل وسلم على القوم ، ثم جلس قليلاً فتلا آيات من القرآن الكريم ، وذكر بالله وحذر ، وبشر وأندر .
وابن أبي بن سلول ، صامت واجم لا يتكلم .

حتى إذا فرغ المصطفى مما أراد أن يقول ، بادره « ابن أبي » فقال في جفوة :

— يا هذا ، إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقاً ، فاجلس في بيتك فمن جاءك فحدثه إياه . ومن لم يأتك فلا تغششه في مجلسه بما يكره منه ! .

ولم يدعه الرجال من حوله يتم قوله المتكرة ، وانتفض الشاعر الأنصاري « عبد الله بن رواحة » يرد على ابن أبي ، متحدياً :

« بلى يا رسول الله ، فاعشنا بحديثك واثتنا في مجالسنا ودورنا وبيوتنا . فهو والله مما نحب ، ومما أكرمنا الله به وهدانا له . »

وغض « ابن أبي » من بصره وهو يتمثل بقول « خيماف بن زغبة السلمي » :

متى ما يكنُ مولاك خصمك لا تزلْ
تَذُلُّ ويصرعك الذين تصارعُ
وهل ينهض البازي بغير جناحه
وإن جُدَّ يوماً ريشه فهو واقع

* * *

وقام المصطفى فدخل على صاحبه « سعد بن عبادة » وفي وجهه ، صلى الله عليه وسلم ، ملامح ضيق لما سمع من « ابن أبي بن سلول » عدو الله .
سأل سعد :

« والله يا رسول الله إنى لأرى في وجهك شيئاً . لكأنك سمعت شيئاً
تكرهه ؟ »

فأخبره المصطفى بما كان ، فقال سعد :

« يا رسول الله ، ارفق به فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم الحرز
لنتوجه . فوالله إنه ليرى أن قد سلبته ملكاً ! »

* * *

لم يكذب اليهود يطمثون إلى موادة نبي الإسلام إياهم ، حتى عادوا إلى أوكارهم يدبرون لحرب الإسلام في معركة غير مكشوفة ، يتقون بها المواجهة السافرة والصدام المعلن .

وكان أقصى ما غاظهم من هذا الإسلام ، أن أطفأ نار العداوة والبغضاء بين غرب المدينة ، الأوس والخزرج ، بعد أن سهرت أجيال من السلالة اليهودية على إهابها بوقود من الدس والفتنة والتواطؤ ، منذ حطت عصايات من فلولهم على هذه المنطقة الحصبة من شمال الحجاز فراراً من وطأة الرومان ، ونشبو في كيان المنطقة على حساب الوجود العربي الممزق .

* * *

فهل يمكن إيقاظ الفتنة بين الأوس والخزرج ، وإهاجة الشر بينهم بعد أن حسمه الإسلام ونسخ ثارات لهم وأحقاداً تراكت على طول خمسة قرون قبل المبعث ؟ .

لا بأس من المحاولة ، على أن تبدو حادثاً فردياً عارضاً ، لا يحمل اليهود إثمه .

نقل « ابن إسحاق » فيما نقل بالسيرة النبوية من أحداث عام الهجرة :

« مر شاس بن قيس — وكان شيخاً يهودياً عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين والحسد لهم — على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج ، في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه . فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية . فقال — يحدث نفسه أو

قومه : قد اجتمع ملاً بنى قبيلة يهذه البلاد ، وما لنا إذا اجتمع أدرهم من قرار !

« ثم أمر قتي شاباً من يهود كان معه : فقال :
 — اعمد إليهم فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بعثت وما كان قبله
 من حروب بينهم ، وأنشدهم بعض ما تقاولوا فيه من أشعار .
 ففعل الشاب اليهودي ما أمره به شيخه ، فتكلم القوم عند ذلك
 وتنازعوا وتفاخروا ، حتى توثب رجالان من الحيين وقال أحدهما
 لصاحبه :

— إن شئتم رددناها الآن جذعة .

فغضب الفريقان جميعاً وصاحوا : قد فعلنا !

وتواعدوا على أن يلتقوا في يومهم ذاك بموضع " الحرة " وانذفوا
 يتداعون إلى الحرب وهم يتصايحون : السلاح السلاح ! . »

* * *

ووجمت دار الهجرة وهي تسمع صيحة الحرب ، وجاء المصطفى
 في جمع من صحابته ، فأدرك القوم في « الحرة » وقد هموا بقتال ، فقال
 عليه الصلاة والسلام :

« يا معشر المسلمين ، الله الله ! أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم
 بعد أن هدانا الله للإسلام وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر ،
 وألف بين قلوبكم » ؟

ونفذ صوت المصطفى إلى مسامعهم وضمايرهم ، وعرفوا أنها ترغمة من الشيطان
 ومكيدة عدوهم ، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً .

وبطل سم هذه الفتنة ، ونخاب كيد يهود .

والمصطفى يتلو من آيات « آل عمران » ثانياً السور التي نزلت بالمدينة

بعد الهجرة :

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ
شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُوتَہَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ،
وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ
تُطِيعُوا فَرِيضًا مِّنَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ
إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ
آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ، وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ
إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ
تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ
اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ
إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ،
كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلَتَكُنَّ

مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا
كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتِ ،
وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . . . صدق الله العظيم

وخشع المؤمنون لآيات ربهم .

وانكمشت العصاة الملعونة تفتش في جعبتها عن سهام أخرى يمكن
أن تصيب ، من حيث ارتد سهم الفتنة إلى صدورهم يؤجج ما انطوت عليه
من ضغينة وغدر وحقد . . .

على أن تبدوا المكيدة حادثاً فردياً عارضاً لا يحمل اليهود كلهم إثمته .

في أوكار يهود الناشية في دار الخجرة وما حولها ، تمت تعبئة الأحبار ليكيدوا للإسلام كيداً . دون أن يواجهوه بحرب معلنة :

يتظاهر نفر منهم بالإسلام ، ثم يندسون بين الصحابة في صميم المجتمع الإسلامي بالمدينة . ليذروا بذور الشر التي تؤتي ثمرها الخبيث على الوقت الطويل . ويُشربوا ضعاف النفوس من بني قيلة سُمّ المنافق ، واثقين من فعله وإن يكن بطيء الأثر .

وآخرون منهم يتصدون لمجادلة المصطفى : التماساً للعلم واليقين في الظاهر : وقصدًا في الحقيقة والواقع : إلى إخراجهم صلى الله عليه وسلم وإعناته ! .

جاءه نفر منهم : وهو صلى الله عليه وسلم في مجلسه مع صحابته ، فقالوا : يا محمد ، أخبرنا عن أربعٍ نسألك عنهن ، فإن فعلت ذلك اتبعناك وصدقناك .

سألهم عليه الصلاة والسلام : ما هي ؟ .

قال كبير منهم :

« أخبرنا كيف يشبه الولد أمه وإنما النطفة من الرجل ؟

وأخبرنا كيف نومك ؟ وماذا حرم إسرائيل على نفسه ؟

وأخبرنا عن الروح . »

وجاءه « أبو صلوبا الفيظوني » فقال :

— يا محمد ، ما جئتنا بشيء نعرفه — من دلائل النبوة — وما أنزل

الله عليك من آية فتبعك لها .

وعقب « ابن حرملة » فاقترح على المصطفى مثل ما اقترحه عليه
 الوثنيون من قریش :
 — يا محمد ، إن كنت رسولا من الله كما تقول ، فقل له فليكلمنا
 حتى نسمع كلامه !

وأضاف آخر مقترحاً :

— يا محمد ، ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه ، وإلا جئناك
 بمثل ما أتيتنا به !

وتلا المصطفى من كلمات ربه :

« وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنْزِيلًا
 آيَةٌ ، كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، تَشَابَهَتْ
 قُلُوبُهُمْ ، قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . »

وجاءه « جبل بن أبي قشيرة ، وشمويل بن زيد » فقالا :
 — يا محمد ، أخبرنا متى تقوم الساعة إن كنت نبياً كما تقول .
 ولم يجب المصطفى عليه الصلاة والسلام بغير كلمات ربه :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا
 عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ نَازِلَةٌ عَلَيْكُمْ إِلَّا بَعَثْنَا فِي نَفْسِكَ رَسُولًا

عَنْهَا . قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَنَكِّنَ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . . .

وجاءه جمع . فيهم « ابن أبي عزيز . وسلام بن مشكم ، وابن أضاء . فسألوا : أحق يا محمد أن هذا الذي جئت به لحق من عند الله . فإننا لا نراه متسقاً كما تتسق التوراة ؟ ! —

وأضاف « فنحاص . وابن صوريا . وابن صلوبا ، وشمويل بن زيد » : يا محمد . أما يعلمك هذا إنس ولا جن ؟

ورد عليه الصلاة والسلام :

« أما والله إنكم لتعرفون أنه الحق من عند الله . . . ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به »

وكرر وا سؤالهم عن ذى القرنين — وكانوا قد اقترحوا على مشركي قريش أن يسألوه عنه — فأجاب صلى الله عليه وسلم ، بمثل ما أجاب به قريشاً ، مما تلى من آيات سورة الكهف في العهد المكي . . .

وأتى رهط منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه :

— يا محمد ، هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟

فغضب صلى الله عليه وسلم حتى تغير لونه ، وهم بهم يريد أن يبطلش بهم غضباً لربه ، سبحانه ، لكنه تما لك غضبه وراح يتلو :

« قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » .

وغيرهم حلمه صلى الله عليه وسلم ، ففضوا في جدلهم الوقح :
- فصيف لنا يا محمد كيف خلقه ؟ كيف ذراعه ، وكيف عضده ؟
عندئذ اشتد غضب المصطفى وساورهم ، ثم انصرف عنهم يائساً
من جدوى مثل ذلك الجدل العقيم . . .

لكنهم لم يكفوا عن جداتهم الحبيث . يثون سمومه في المجتمع المدني ،
آمنين جانب نبي الإسلام . محتمين بعهد الموثق .

حتى ضج الصحابة من شرهم ومكرهم فمضوا يساورونهم ويزجرونهم ،
عساهم أن يرتدعوا .

دخل « أبو بكر الصديق » بيت المدراس - حيث يجتمعون إلى
أخبارهم ويتدارسون في أسرارهم - فوجد عصاية منهم قد اجتمعت إلى
حبرين من رؤوسهم « أشيع وفنحاص » ، فقال الصديق منبراً :

« ويحك يا فنحاص اتق الله . فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله
قد جاءكم بالحق من عنده . تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل »
ورد عدو الله ، وقد ذكر ما يتلو المسلمون من آيات القرآن في الحث
على التراحم والتكافل ، والبذل في وجوه الخير قرصاً حسناً يضاعفه
الله لهم :

« والله يا أبا بكر ، ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير ! وما نتضرع
إليه كما يتضرع إلينا ، وإننا عنه لأغنياء وما هو عنا بغني ! ولو كان
غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ! ينهاكم عن الربا ويعطيناه ،
ولو كان عنا غنيا ، ما أعطانا الربا ! »

فغضب أبو بكر رضي الله عنه ، ولطم وجه فنحاص وقال :

« والذي نفسي بيده . لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت رأسك
أي عدو الله . »

وأسرع الخبيث إلى المصطفى يشكو إليه صاحبه ، وينكر أن يكون
قال شيئاً مما أغضب الصديق .

ونزل قوله تعالى :

«لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ . سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا . وَقَتَلَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ . وَتَقَبَّلُوا ذُرُوقًا عَذَابَ الْحَرِيقِ »

وازدادوا على موادعة المصطفى جرأة وعناداً ، حتى أنكروا أنهم الذين سبقوا فبشروا بقرب مبعثه ! .

ولم يسكت الأنصار على هذا الإنكار الجريء : وطالما من عليهم يهودُ بأنهم أهل كتاب ، وشغلوهم بالكلام عن نبي حان زمانه .

وتحدث إليهم من الأنصار « معاذ بن جبل ، وسعد بن عباد ، وعقبة ابن وهب » قالوا :

« يا معشر يهود ، اتقوا الله فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفتونه لنا بصفتيه »
فرد منهم رافع بن حريملة ووهب بن يهودا :

— ما قلنا لكم هذا قط ، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى ، ولا أرسل بشيراً ولا نذيراً بعده ! .

وبدا أن المجتمع المدني في حاجة إلى تطهير مما تنفسوا فيه من سموم الشر والنفاق . لكن عهد الموادعة كان يُرْحَى لهم في أمنهم أن يكيدوا للإسلام دون أن يواجهوه في معركة مكشوفة ، لم يكن أوانها قد حان بعد ...

حتى شهر رجب من السنة الثانية للهجرة ، كان المصطفى والذين آمنوا معه يتجهون في صلاتهم مستقبلين الشمال .

ولم يكن صلى الله عليه وسلم راضياً عن تلك القبلة الأولى ، وطالما رنا في تأملاته إلى البيت العتيق يرجوه قبلة لأمته ، لكنه لم يكن يملك أن يغير قبلة المسلمين من تلقاء نفسه ، فليس له إلا أن ينتظر أمر ربه . . .

واستجاب الله سبحانه لرسوله : فولاه القبلة التي يرضاها .

وصلى المصطفى والصحابة في دار الهجرة ، مستقبلين المسجد الحرام بمكة ، منذ نزلت آية البقرة :

« قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً

تَرْضَاهَا . فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ

مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » .

ولم يمض هذا التحول الهام دون جدل من يهود .

ذهب نفر من أحبارهم إلى المصطفى عليه الصلاة والسلام : يسألونه :

— يا محمد ، ما ولاءك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك

على ملة إبراهيم ودينه ؟ ارجع إلى قبلك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك .

وتلا المصطفى من وحي ربه :

«سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَهُمْ عَن قِبَلَتِهِمْ
الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ، قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ
يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» .

وانصرف اليهود بغیظهم لم ينالوا شيئاً بحيلتهم الماكرة وجدلهم
الخبث .

وتسامع طواغيت المشركين من قريش بنبأ تحول المسلمين عن
قبلتهم الأولى إلى المسجد الحرام ، فلم يرضهم ما في هذا التحول من تأييد
الزعامة الدينية لمكة ، بل أوجسوا خيفة أن تكون مكة متوجهة الدعوة
الإسلامية بعد أن خرجت منها إلى يثرب .

وساورهم التقلق وهم يحسون نذر المواجهة المتحدية كلما حان موعد
الصلاة خمس مرات في اليوم ، فتمثلوا المسلمين في دار هجرتهم يقيمون
صلاتهم ، وقبلتُهم المسجد الحرام في أم القرى . . .

في أي الجبهات . يبدأ الصدام المسلح الذي لم يكن عنه بد ، لتأمين الوجود الإسلامي ؟ .

ليس مع يهود قطعاً : فما هو من طبيعتهم ولا في إمكانهم .

وليس مع المنافقين . كذلك . وداؤهم لا يزال كامناً في مرحلة الحضارة والتفريخ .

إنما الصدام المسلح مع المشركين من قريش التي لم يعد أمامها سواه ، بعد أن تجنبتة طويلاً ، على الرغم منها ، حفاظاً على سلام مكة وحرمة البيت العتيق .

على ساحة « بدر » كانت الجولة الأولى لهذا الصدام . . .

وموقعة بدر لم تأت فجأة ، بل سبقتها نذر تراكت على الأفق ما بين دار المبعث ودار الهجرة ، معلنة عن حتمية الحرب بين الإسلام والوثنية ، إذ ليس من طبيعة الأشياء أن يتهاذن حق وباطل .

وقد أذن للمسلمين في القتال دفاعاً عن دينهم وغضباً لحرمانات الله ، ودفعاً لما سيموا من ظلم حين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله .

لكن القتال لم يبدأ مع ذلك في عام الهجرة ، لا لأن المسلمين اكتفوا بأن يلتمسوا في المدينة مأمناً ومقاماً . وإنما مضى العام كله احتشاداً للجهاد وتنظيماً للمجتمع الجديد في مركز الدعوة الإسلامية ، واكتشافاً لأبعاد

الميدان في منطقة كانت ، حتى الهجرة ولما دى خمسة قرون قبلها ، مرعى للذئاب من يهود .

ولم يكن حيناً على المهاجرين والأنصار أن يأتي موسم الحج في عام الهجرة الأول ، وقد حيل بين المسلمين وبين أداء فريضة الحج والسعى إلى بيت الله الحرام الذي سيطر عليه المشركون وكدسوا الأوثان في ساحته ، وأباحوه لكل الوثنيين من العرب ، وصدوا عنه المؤمنين الذين يعبدون رب هذا البيت ، لا يشركون بعبادته أحداً . . .

ومع مطلع السنة الثانية للهجرة ، بدأ المصطفى يخرج في غزوات قصار ، تدريجاً لجنده من حزب الله ، وإقراراً لطيبة الإسلام في موقعه الجديد .

كما بدأ عليه الصلاة والسلام يبعث سراياه لتجوب المنطقة ما بين مكة والمدينة ، وأولاهما مركز الوثنية العربية ، والأخرى مركز الدعوة الإسلامية .

ولم تكن هذه السرايا قاصدة إلى قتال ، وإنما كانت دوريات استطلاع ترصد أنباء قريش في منطقة الحجاز .

أولى السرايا ، سرية « عبدة بن الحارث بن المطلب ، إلى مشارف الحجاز . وقد أتى جمعاً من قريش فلم ينشب بينهم قتال ، إلا أن « سعد ابن أبي وقاص » رمى بسهم فكان أول سهم رُمي به في الإسلام ، وقد اعتر به سعد فأنشد :

ألا هل أتى رسولَ الله أنى

حميتُ صحابتي بصدورِ نبلي

فما يعتدُّ رامٌ في عدوِّ

بسهيمٍ يا رسولَ الله قبلي

بعد سرية عبادة بن الحارث ، بعث المصطفى سرية عمره « حمزة ابن عبد المطلب » إلى سيف البحر ، في ثلاثين راكباً من المهاجرين . ثم تلها سرية « سعد بن أبي وقاص » فبلغت غايتها من أرض الحجاز ، ثم عادت لم تلق كيداً .

بعدها كانت سرية « عبد الله بن جحش » ، ابن عمه المصطفى أميمة بنت عبد المطلب ، ومن هذه السرية اندلع الشر الذي أوقد الضرام الكامن ، فتوهج مشتعلا على ساحة بدر .

خرج عبد الله بن جحش في ثمانية من المهاجرين ، في أوائل رجب من السنة الثانية للهجرة . ورجب من الأشهر الحرم التي لا يحل فيها قتال : وكانت أوامر المصطفى إلى ابن عمته : أن يمضي بالسرية حتى ينزل بموضع « نخلة » ما بين مكة والطائف ، فيترصد بها قريشاً ويستطلع أخبارها .

وحدث في مرحلة من الطريق أن خرج « سعد بن أبي وقاص وعتبة ابن غزوان » ينشدان بعيداً لهما ضل . ثم تخلفا لم يرجعا إلى منزل السرية ، وبدا أن قريشاً أخذتهما على غرة فأسرتهما . ومضى أمير السرية بمن بقي معه من المهاجرين حتى نزل بنخلة كما أمره المصطفى عليه الصلاة والسلام . فمرت غير تجارية لقريش ، فيها « عمرو بن الحضرمي » وتحاشى المسلمون القتال التزاماً بجرمة الشهر الحرام . لكن تجنب

الصدام مع المواجهة . لم يكن مستطاعاً . وأطلق الصحابي « واقد بن عبد الله » سهماً أصاب عمرو بن الحضرمي فقتله .

وعندئذ فرت قريش عن غيرها وقتيلها : وعن أسيرين منها .

وعادت السرية الظافرة إلى المدينة بالمغانم والأسيرين ، وهي ترجو أن يُفتدى بهما سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان . غير أنها ما كادت تدخل المدينة حتى استقبلت بوجوم ذهب بفرحة النصر ، وقال المصطفى لابن عمته ، أمير السرية : « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » .

ثم أعرض صلى الله عليه وسلم عما جاءت به السرية من مغانم ، ونحى الأسيرين القرشيين . فظن عبد الله بن جمحش وأصحابه أنهم أثموا وهلكوا . واشتد الصحابة من المهاجرين والأنصار في لومهم ، ونقلوا إليهم ما تقول قريش في مكة : « قد استحل محمد وأصحابه حرمة الشهر الحرام »

وتسللت الأفاعي من الأوكار اليهودية ، فراحت تطوف بأحياء المدينة وهي تهمهم في حقد وأشتفاء :

« عمرو بن الحضرمي ، قتله واقد بن عبد الله .

عمرو : عمرت الحرب .

الحضرمي : حضرت الحرب .

واقد : وقدت الحرب »

حتى حسم القرآن ذلك الموقف المعقد وأنهى كل جدل فيه بكلمات الله البينات :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ

قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ . وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ
أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ
عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا . وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ
فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ ؛ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * إِنَّ
الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ
يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ "

وبهذه الآيات استرد جنود السرية طمأنينةً بالهم وطاب لهم النصر
على عدوهم ، وأنشد عبد الله بن جحش :

تعدون قتلا في الحرام عظيمه	وأعظم منه ، لو يرى الرشيد راشداً
صدودكم عما يقول محمد	وكفر به ، والله راعٍ وشاهد
وإخراجكم من مسجد الله أهله	لئلا يرى لله في البيت ساجداً
فإننا وإن غيرتمونا بقتله	وأرجف بالإسلام باغ وحاسداً
سقيناً من ابن الحضرمي رماحنا	بنخلة لما أوقد الحرب واقداً

بعد شهرين اثنين ، في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة ، كانت غزوة بدر الكبرى التي وجهت مجرى الأحداث وحددت موازين القوى ، لا بين الإسلام والوثنية فحسب ، بل بين كل صراع كذلك ، بين حق وباطل !

« أبو سفيان بن حرب » في طريقه من الشام إلى مكة عائداً بعير قريش . . .
وصيحة تعلق في مكة :

« يا معشر قريش ، اللطيمة اللطيمة ! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أنكم مدركوها »
وترد أصوات من هنا ومن هناك :

« أياظن محمد وأصحابه أن تكون عير أبي سفيان كعير ابن الحضرمي ؟
كلا والله ليعلمن غير ذلك » .

ونخرجت جموع قريش من مكة مزهومة بعددها وعدتها ، تريد القضاء على المسلمين في دار الهجرة ، وهي ترى الأمر حيناً بسيطاً ، وكأنها خارجة إلى رحلة صيد . . .

* * *

ماذا كان من أمر المسلمين حين قال لهم الناس :

« إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا

وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » ؟

جمع المصطفى صحابته من المهاجرين والأنصار ، وعرض عليهم

الموقف من مختلف نواحيه ، ثم قال يطلب رأيهم :

« أشيروا عليّ أيها الناس »

فقام أبو بكر الصديق ، ثم عمر بن الخطاب . فتحدثا ما شاء لهما

إيمانهما عن فريضة الجهاد والثقة في النصر ، ثم قام « المقداد بن عمرو »

— وكان قد خرج من قريش ولحق بالمسلمين في سرية عبيدة بن الحارث —
ودنا من المصطفى ، وقال :

— يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك . والله لا نقول لك
كما قالت بنو إسرائيل لموسى : " اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا
قاعدون " ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . فوالذى
بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد — بأقصى الجنوب — لجالدنا معك
دونه حتى تبلغه .

دعا له المصطفى بخير : ثم التفت صلى الله عليه وسلم إلى الأنصار ،
ولم يكن أحد منهم قد تكلم بعد ، وعاد يقول :

« أشيروا على أيها الناس »

سأل نقيبهم « سعد بن معاذ » أحد السعديين :

« والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ »

أجاب المصطفى : « أجل »

فقال سعد :

— فقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ،
وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة . فامض يا رسول
الله لما أردت فنحن معك . فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا
البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن
نلتقى عدونا غداً ، إنا لصبرُ في الحرب صدق في اللقاء ، لعل الله يريك
منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله .

وسار بهم المصطفى على بركة الله حتى نزل بماء بدر ، ليسمع أن في
جيش المشركين بالعدوة القصوى صناديد قريش : عتبة بن ربيعة ،

وشيبة بن ربيعة . والوليد بن عتبة . وأبو جهل بن هشام ، ونوفل وحكيم
ابنا خويلد ، والنضر بن الحارث . وأمّية بن خلف . . .

فالتفت صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وقال :

« هذه مكة قد أخرجت إليكم أفلاذ أكبادها »

ثم لمح قريشاً تندفع من وراء كئيب هناك ، هادرة بزئير الوعيد ،
ثملة بنشوة الغرور و متعة الصيد ، فرفع صلى الله عليه وسلم وجهه إلى السماء
وقال يدعور به :

« اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب

رسولك . اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم أحنيهم الغداة »

• • •

كم كان عدد المشركين الزاحفين من مكة ؟

ألف مقاتل كاملو العدة والسلاح أو يزيدون ، ومعهم مائة فرس

مدربة على القتال .

وتجاههم . بالعدوة الدنيا . كان جنود المصطفى من حزب الله :

ثلاثمائة وأربعة عشر لا يزيدون . من المهاجرين ثلاثة وثمانون ، ومن

الأوس واحد وتسعون ، ومن الخزرج مائة وأربعون . ومعهم من الخليل

ثلاثة أفراس فحسب ! .

استضعف المشركون جند الإسلام ، فتقدم أحد صناديدهم في

صلف وخيلاء . يريد أن يقتحم عسكر المسلمين إلى ماء بدر ، فلم

يمهله « حمزة بن عبد المطلب » فسقط مضرجاً بدمائه دون بدر .

واستكبر طواغيت قريش أن يخوضوا معركة مع هذه القلة المستيسلة :

إن انتصروا عليها ضاع النصر في ميزان فقدان التكافؤ ، وإذا هُزموا

قضت عليهم الهزيمة بعار الدهر ، وذهبوا سُبَّةً في العرب .

وبدا لكبيرهم « عتبة بن ربيعة » فخرج من صف المشركين يخال بين أخيه شيبه عن يمينه ، وابنه الوليد عن يساره ، وسأل في استخفاف :
— هل من مبارز ؟ .

فخرج إليه ثلاثة من الأنصار ، زهد في مبارزتهم عند ما سألهم :
من يكونون ؟ فعرفوه بنسبهم في بني قيلة . قال : ما لنا بكم حاجة !
ثم نادى : يا محمد ، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا .
فأخرج إليه المصطفى ثلاثة من صميم البيت الهاشمي القرشي :
عمه ، حمزة بن عبد المطلب بن هاشم .
وابنا عمه : علي بن أبي طالب ، وعبيدة بن الحارث .

ولم تطل المبارزة ، وسقط عتبة بن ربيعة وأخوه شيبه ، وابنه الوليد بن عتبة ، صرعى مجندلين على ساحة بدر ! .
عندئذ تزاحف الناس وحميت المعركة ، فأخذ المصطفى براحته حفنة من حصباء بدر قذف بها عسكر المشركين وهو يقول : « شاهت الوجوه » .

ثم التفت صلى الله عليه وسلم إلى جنده فقال : « شدوا »
وشدوا على المشركين فما تركوهم إلا بين قتيل وأسير ، وهارب يشترى النجاة بعار الفرار .
وصدق الله وعده ونصر من نصره ، وألقى الرعب في قلوب عدوهم فذهبوا عبرة ومثلاً .

وعاد الجيش الظافر إلى المدينة بالأسرى والمغانم .
وعادت فلول المشركين إلى مكة بالهزيمة والذل .
أحصى « ابن هشام » في السيرة النبوية قتلى قریش في بدر ، سبعين

رجالاً . وبلغ أسراهم نحو ذلك العدد . فكانوا ستة وستين أسيراً .
والباقيون من الجيش المغلوب ، لاذوا بالفرار .

أما المسلمون فاستشهد منهم يوم بدر أربعة عشر شهيداً : ستة من
المهاجرين وثمانية من الأنصار ، بذلوا أنفسهم فداء عقيدتهم فذهبوا
بمجد الشهادة وشرف الجهاد وثواب الآخرة :

« وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ
أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ
فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ
أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ
مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ
اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ، لِلَّذِينَ
أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ
إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا
حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ
يَحْسَبْهُمْ سُوءًا وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ »
صدق الله العظيم

وتجاوبت آفاق الحجاز بقصائد حماسية بعيدة الصدى : للشعراء
الذين أخذوا أماكهم في الموقع الوجداني للميدان : يناضلون بسلاح الكلمة
لتعبئة الوجدان العام :

في مدينة الرسول كان شعراء الإسلام الذين جندهم المصطفى عليه
الصلاة والسلام لنصر الدعوة بألسنتهم ، يشدون بأية النصر في بدر ،
ويرمون المشركين بشعره وصفه المصطفى فقال إن وقعه عليهم أشد من
نضح النبل .

فمن شعر حسان بن ثابت الأنصاري :

ألا ليت شعري هل أتى أهل مكة
إبارتنا الكفار في ساعة العسر
قتلنا سراة القوم عند مجالنا
فلم يرجعوا إلا بقاصمة الظهر
تركناهم للعاديات ينثينهم
ويصلون ناراً بعد حامية القعر
لعمرك ما حامت فوارس مالك
وأشباعهم يوم التقينا على بدر

ومن قصيدة لكعب بن مالك الأنصاري :

ألا هل أتى غسان في نأى دارها
وأخبرُ شيء بالأمور عليمها
بأنه قد رمتنا عن قسي عداوة
معيداً معاً ، جهالها وحليمها
لأننا عبدنا الله لم نرُج غيره
رجاء الجنان ، إذ أتانا زعيمها

نبي له في قومته إرثٌ عزة
 وأعراق صدقٍ هذبته أرومها
 فساروا وسارنا فالتقينا كأننا
 أسود لقاءٍ لا يُرجى كلمها
 ضربناهم حتى هوى في مكربنا
 لمنخرٍ سوءٍ من لؤيٍ عظيمها
 فولوا ودسناهم بيض صوارم
 سواء علينا حلفها وصميمها

==

وفي مكة ، كان شعراء المشركين يهدرون بطلب الثأر ، ويبكون
 مصارع الصناديد الذين جندلوا على ساحة بدر .
 قال ضرار بن الخطاب الفهري يرثي أبا الحكم بن هشام ، أبا جهل ،
 ويستنفر للثأر :

ألا من لعينٍ باتت الليل لم تتم
 تراقب نجماً في سوادٍ من الظلم
 كأن قذى فيها ، وليس بها قذى
 سوى عبرة من جائل الدمع تنسجم
 فأليت لا تنفك عيني بعبرة
 على هالك بعد الرئيس أبا الحكم
 على هالك أشجى لؤي بن غالب
 أتمه المنايا يوم بدر فلم يريم
 فلا تجزعوا آل المغيرة واصبروا
 غايه ، ومن يجزع عليه فلم يلكم

و جيداً فإن الموت مكرمة لكم

وما بعده في آخر العيش من ندم

وقال « أمية بن أبي الصلت » - ذاك الذي آمن لسانه قبل المبعث ،
وكفر قلبه - قصيدة طويلة ينوح فيها على قتلى بدر من صناديد
قريش ...

وكذلك أخذت الشاعرات من الفريقين مكانهن في المعركة ،
روى ابن إسحاق في (السيرة النبوية) أربع قصائد لحند بنت عتبة ،
وقصيدتين لصفية بنت مسافر حفيذة أمية بن عبد شمس .

كما روى قصيدة لحند بنت أثاثة ، حفيذة عبد المطلب ، ترى
شهيداً لها من شهداء بدر . وأخرى لقتيلة بنت الحارث ، في النضر بن
الحارث الذي قتل صبراً بعد المعركة ، في « الأثيل » بين بدر والمدينة .
وفيها تقول :

يا راكباً إن الأثيل مظنة	من صبح خامسة وأنت موفقٌ
أبلغ بها مريئاً بأن تحية	ما إن تزال بها النجائب تخفق
منى إليك ، وعبرة مسفوحة	جادت بواكفها وأخرى تخفق
هل يسمعي النضر إن ناديته	أم كيف يسمع ميت لا ينطق
أحمد يا خير ضنء كريمة	في قومها والفحل فحل مبرق
ما كان ضرك لو مننت وربما	منّ الفبي وهو المغيظ المحقق
أو كنت قابل فدية فليُفدين	بأعز ما يغلو به ما ينفق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة	وأحقهم إن كان عتق يعتق

فيروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه شعر قتيلة في النضر بن
الحارث قال : « لو بلغني هذا قبل قتله ، لمننت عليه »

* * *

وبدا النصر عجبياً وغريباً ، فما تصورت قريش وهي تحتشد في ألف

مقاتل كاملى العدة والسلاح . أن يغلبهم القائد الرسول في ثلاثمائة من صحابته .

ولكن سنن الحياة لا ترى في هذا النصر أى شذوذ أو غرابة .
القتال في بدر لم يكن بين فئتين متكافئتين :
من حيث العدد والسلاح ، كان القرشيون يزيدون أضعافاً مضاعفة .
ولكن المعركة لم تكن متكافئة كذلك من حيث القوى المعنوية :
المشركون خرجوا للقتال بطراً ورتاء الناس ، وإمعاناً في البغى والعدوان ،
وتأميناً لطريق تجارتهم إلى الشام ، وانتقاماً من المصطفى والذين هاجروا معه
والذين آووه ونصروه لا يبالون غضب قريش !
والمسلمون خرجوا جهاداً في سبيل دينهم ، وتأميناً لحقهم ، وغضباً
لما ساءتهم الوثنية القرشية من أذى واضطهاد .
ومتى كان القتال بين حق وباطل ، بين مستبسل في سبيل ما يؤمن
أنه الحق ، وبين ممعن في البغى والضلال ، فإن العشرة من المؤمنين يغلبون
المائة ، والمائة يغلبون الألف .

• • •

وتحددت بادر موازين القوى :

فلم يكن الأمر فيها بين كثرة وقلة فحسب ، ولكنه كان بين كثرة
يعوزها سلاح الإيمان ، ليس فيها من يقاتل إلا وهو يفكر في حماية
الجاه الموروث ويرى في خصومه المسلمين صيداً سهلاً ، وبين قلة
مؤمنة صابرة ليس فيها من يقاتل إلا وهو يرجو انتصار الحق ورضوان
الله ، ويرى الموت في سبيل عقيدته التي آمن بها ، حياة ومجداً وانتصاراً .
وحزب الله لم يتردد في دخول المعركة حتى يقيس قوته إلى قوة عدوه ،
ولم يتهيب القتال خوفاً من كثرة مسلحة مزهوة بعددها وعدتها ، بل بادر

جنود الإسلام إلى لقاء عدوهم بعد أن جمعوا له كل ما استطاعوا من
قوة ، ورحبوا بالجهاد لا يبالى أحدهم حين يُقتل مسلماً ، كيف ولا أنى
يُقتل :

ولستُ أبالي حين أقتلُ مسلماً على أى جنبٍ كان فى الله مصرعى

مدينة الرسول تصغى إلى هتاف النصر يأتى من بدر . . .
وتصغى معه إلى حشجة احتضار « رقية بنت المصطفى » ذات
المجرتين . . .

كانت هناك تعالج سكرات الموت ، وزوجها « عثمان بن عفان »
قد تخلف مكرهاً عن شهود بدر . ليرعاها في لحظاتها الأخيرة ، ويتزود
منها لفراق طويل . . .

وجاء أبوها المصطفى عائداً من بدر ، فوقف على فراشها محزوناً يملأ
عينيه منها ، ثم انثنى فى رفق نحو ابنته « فاطمة » التى أكبت على
مضجع أختها تبكى ، فجعل الأب الثاقل يمسح دموعها بطرف
ثوبه . . .

ولم تقو النساء على احتمال المشهد الفاجيع ، فانسحبن إلى خارج
الغرفة مجهشات بالبكاء ، وهاج نحيبهن « عمر بن الخطاب » فزجرهن فى
شدة ، محاولاً أن يردهن إلى ما ينبغى من سكينة وصبر .

لكن النبى المصطفى كفه عنهن وقال :

« مهما يكن من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، ومهما يكن من
اليد واللسان فمن الشيطان » .

وصلى الأب المصطفى على ابنته رقية

وشيعت المدينة بنت النبى ، ذات المجرتين ، حتى أضجعها
أبوها فى الثرى الطيب الذى استقبل معها الأبرار من شهداء بدر . . .

سبق أسرى بدر إلى المدينة في أعقاب الفئة الظافرة ، فتأملهم المصطفى ملياً . ثم نحى منهم صهره « أبا العاص بن الربيع » وفرق الباقين بين أصحابه وقال : « استوصوا بالأسارى خيراً »

وبقى أبو العاص عند المصطفى ، وقلبه مشدود إلى مكة ، حيث ترك هناك زوجته الحبيبة « زينب بنت محمد » مع صغيريهما : عليّ وأمامة ولم يكن الإسلام قد فرق بعد بين زوجة مؤمنة وزوجٍ مشرك حتى جاءت رسل قريش في فداء أسراها

وغالوا في الفداء ، حتى إن المرأة لتسأل عن أغلى ما فُدى به قرشي فيقال لها : أربعة آلاف درهم ، فتبعث بمثلها في فداء ابنها .

وتقدم « عمرو بن الربيع » فقال للمصطفى :

— بعثني « زينب بنت محمد » بهذا ، في فداء زوجها ، أخى أبى

العاص بن الربيع .

وأخرج من ثيابه صرة وضعها بين يدي الرسول ، ففتحها صلى الله عليه وسلم فإذا فيها قلادة لم يكدها يراها حتى رق لها رقعة شديدة ، وحقق قلبه للذكرى : لقد كانت قلادة « خديجة » أهدتها ابنتها زينب يوم عرسها ، حين زُفت إلى « أبي العاص بن الربيع » ابن خالتها هالة بنت خويلد

وأطرق أصحاب المصطفى خُشعاً وقد أُخذوا بجلال الموقف : قلادة الحبيبة ، تبعها بنت النبي إلى أبيها ، في فداء زوج حبيب !

وتكلم النبي الأب بعد فترة صمت فقال :

« إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها ماها ، فافعلوا » .

أجابوا جميعاً :

نعم يا رسول الله .

وأدنى المصطفى إليه صهره الذي غلبه التأثير هيبية الموقف ، فأسرَّ إليه

حديثاً : فحنى أبو العاص رأسه موافقاً . ثم حيا ومضى . فلما أبعاد
التشت المصطفى إلى أصحابه من حوله ، فأتى على أبي العاص وقال :
« والله ما ذمناه صهراً »

• • •

وعاد « أبو العاص » إلى مكة ، ليجهز زوجه الحبيبة لتلحق بأبيها
المصطفى ، وفاء بالوعد الذي قدمه ، حين أسرى صلى الله عليه وسلم إليه ،
أن يفعل ، لأن الإسلام فرق بينه وبين زوجه .

وكان الفراق قاسياً صعباً ، وقد خانته تجلده يوم رحيلها ، فترك أخاه
« كنانة بن الربيع » بصحبها إلى خارج مكة ، حيث كان « زيد بن
حارثة » في انتظارها .

وانطلق « كنانة » يقود بعيرها نهراً وقد أخذ قوسه وكنانته متأهباً ،
فحال قريشاً أن يخرج بها هكذا في وضح النهار على مرأى منهم ومسمع ،
وخرج بعضهم في أثر المهاجرة حتى أدركوها بذي طوى ، فكان أسبقهم
إليها « هبار بن الأسود الأسدي » الذي روعها بالرمح ، وقد جن حزنه
على إخوة له ثلاثة ، صرعوا جميعاً في بدر بأيدي أصحاب محمد .

ونخس البعير ، فألقى بزيب على صخرة هناك . وعندئذ برك « كنانة
ابن الربيع » دونها ونثر كنانته وهو يزأر متوعداً :

— والله لا يدنو منها رجل إلا وضعت فيه سهماً .

فراجعوا ، ووقف أبو سفيان بن حرب بعيداً يقول لكنانة :

— كف عنا نبلك حتى نكلمك .

فكف كنانة ، ودنا أبو سفيان منه فقال :

— إنك لم تصب يا ابن الربيع : خرجت بالمرأة على رعوس الناس

علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد ، فيظن الناس

أن ذلك عن ذل أصابنا وأن ذلك منا ضعف ووهن . ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة ، ولكن ارجع بها حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها ، فتسلل بها سرّاً فألحقها بأبيها .

فكبر على « كنانة » أن يردها ليعود فيتسلل بها سرّاً بعد أن يذاع في الناس أن قد ردتها قريش . . . وهم ليمضى بها ، فراعته أن رآها تنزف دمًا . وقد طرّحتُ جنيها على أديم الصحراء!

وعاد بها إلى مكة ، حيث سهر أبو العاص على رعايتها وتمريضها لا يفارقها لحظة من ليل أو نهار . حتى إذا استردت بعض قواها ، ودعها للمرة الثانية وداع محب مقهور . وخرج بها « كنانة » حتى بلغت مأمنها .

ولم يتبعها في هذه المرة طالب ، بل أغمض الذين طاردوها بالأمس أعينهم . وقد ركبهم الحزى والعار من قول هند بنت عتبة تعيرهم ، وتُعَرِّضُ بهزيمتهم في بدر :

أفى السلم أعيار . جفاء وغلاظة وفى الحرب أشباه النساء العوارك؟

استقبلت دار الهجرة بنت المصطفى بترحاب بالغ ، شابته فرحة اللقاء فيه سرورة الغضب لما أصابها عند خروجها من مكة . وعاشت زينب في رعاية أبيها المصطفى على أمل لم يغلبها عليه اليأس قط : أن يشرح الله صدر أبي العاص للإسلام ، فيلتئم الشمل الممزق .

وكان عليها أن تنتظر ست سنوات طوال ليتحقق هذا الأمل الغالى ، ثم لا يكاد الشمل يلتئم حتى ترحل عن الدنيا بعد عام وبعض عام من إسلام أبي العاص ، فيكون فراق لا لقاء بعده على هذه الأرض . . .

من يوم بدر تحددت موازين القوى وتقرر مصير المعركة العنيفة بين الإسلام والوثنية . وإن طال أمردها سنين عدداً وتعددت جولاتها بعد بدر حتى حُسمت نهائياً بالنصر الأكبر يوم فتح مكة ، في السنة الثامنة للهجرة .

ومن يوم بدر . تقرر كذلك مصير الصراع في جبهة أخرى أخطر وأضرى من تلك الجبهة القرشية ، والمعركة فيها مكشوفة والأسلحة مألوفة معروفة .

لقد كان العرب القرشيون يقاتلون ببسالة دفاعاً عن أوضاع موروثه وتقاليده راسخة ، وغضباً لحرمة أسلافهم ، من حيث لم يكن عليهم أن يتصوروا أن أولئك الآباء الكرام ، من أمثال عبد المطلب وهاشم وعبد شمس وعبد مناف وقصى والمغيرة ، إلى فهر ومضر وعدنان . . . كانوا على سفه وضلال .

وعلى طول الأعوام العشرين التي استغرقتها المعركة بين المشركين العرب وبين المسلمين ، كان الإسلام يستقبل من يصغى من قريش إلى ما يتلو المصطفى من آيات معجزته ، فيؤمن برسالته ويبيعه على الإسلام والبذل والجهاد . وحزب الله الذي بدأ فجر المبعث ، في ليلة القدر من شهر رمضان ، بالمسلمة الأولى خديجة زوج المصطفى وأم المؤمنين ، ثم انضم إليه السابقون الأولون ، كان يستقبل كل يوم جندياً جديداً من جبهة القرشيين ، يعزه الله بالإسلام ويعز الإسلام به .

والمئات الثلاث من المجاهدين والأنصار الذين شهدوا بدرًا تحت لواء المصطفى . لم يلبثوا أن تكاثروا بمن انضم إليهم من العرب . فدخل المصطفى مكة يوم الفتح . في عشرة آلاف من الصحابة ، فيهم من كان

قبل أن يشرح الله صدره للحق . أشد الناس عداوة للإسلام وحرماً للمصطفى والذين آمنوا معه .

والذين تأخر إسلامهم إلى عام الفتح ، وغزوة حنين بعده ، لم يلبثوا أن خرجوا مع الكتائب المجاهدة في معارك الفتوح الكبرى التي حملت لواء الإسلام إلى أقصى المشرق وأقصى المغرب .

كلا . لم تكن تلك الجبهة القرشية العربية أخطر ما واجه الإسلام في عصر المبعث ، والمعركة فيها مكشوفة والسلاح معروف ، ومنها كان يأتي المدد تبعاً إلى حزب الله .

إنما كان الخطر الأكبر في الجبهة الحبيثة لأعداء البشر ومن شرب سمهم من المنافقين في المدينة . لقد حرص اليهود على ألا يواجهوا الإسلام في معركة مكشوفة ، وسهرت عصاباتهم في أوكارهم الناشئة في شمال الحجاز ، تنفث سم النفاق في المدينة ، ثم تبادى بها الشر فسعت إلى قريش تؤلب الأحزاب منها وتستنفرها لقتال المسلمين بالمدينة ، على وعد النصر من يهود الذين وادعهم المصطفى وأمتهم ، على دينهم وأموالهم . وكانت موقعة بدر ، هي التي كشفت المستور من غدريهم بعهدهم للمصطفى ، وفيه النص الصريح :

« وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب » . . .

إنه الغدر ! فجيوش المشركين من قريش ، لم يخرج من مكة إلا ليدهم

يثرب

والغدر من طبيعة يهود ، وهو متوقع ومحسوب .

وأملى لهم المصطفى : واكتفى صلى الله عليه وسلم بأن جمع يهود المدينة بسوق بني قينقاع . وحذرهم من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة .

وحين يقتصر الأمر على الإنذار أو ما هو أشد منه . فإن اليهود تتناول وتجترى : ما بقيت السيوف في أغمادها .

• • •

وغداً بنو قينقاع إلى سوقهم بالمدينة يأكلون المال ، ويكيدون للإسلام لا يبالون نذيراً من الله ورسوله . وبدا لنفر منهم أن يعرضوا لإحدى المسلمات يريدونها على أمر تكرهه ، ثم احتالوا حتى كشفوا ثوبها في السوق عن عورتها : فصاحت تستصرخ العرب ، ووقع الشر بين من في السوق من المسلمين ، وبين بني قينقاع .

وأقبل المصطفى في جمع من الأنصار فحاصر اليهود خمس عشرة ليلة ، حتى استسلموا ونزلوا على حكمه . وعندئذ تقدم المنافق « عبد الله ابن أبي بن سلول » فقال للمصطفى على الملأ من الناس :

— يا محمد ، أحسين^١ إلى^٢ في موالى^٣ ! .

وأعرض عنه المصطفى ، لكن المنافق مضى في لجأته ، مصراً على استنقاذهم ! .

قال عليه الصلاة والسلام : « هم لك ! »

واكتفى بأن جردهم من سلاحهم ، وأمهلهم ثلاثة أيام يجلون بعدها عن المدينة فخرجوا أذلة متهورين إلى وادي القرى ، حيث نزلوا على عصابتهم هنالك .

وتظهرت دار الهجرة بجلاء بني قينقاع عنها بعد « يوم بدر » في السنة الثانية للهجرة :

« « «

وتتابعت أحداث فردية ، تعكس صدى الرعب في قلوب يهود ، وتم عن كيدهم وحقدهم .

وقد تعلق أملهم ، بأن تثار قریش لقتلها في بدر ، فما كانت لتسكت عليه كما سكتت يهود على إجلاء بني قينقاع .

« « «

بعد عام واحد . في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة ، كان « يوم أحد » .
 « خرجت قريش بجيادها وجديدها وحديدتها وأحابيشها ، ومن تابعها من بني كنانة وأهل تهامة » .
 ونزل الجيش الزاحف على سفير الوادي مقابل المدينة . وخرج له المصطفى بجنده من المهاجرين والأنصار .
 والتحم الجيشان .

وحين بدا النصر للمسلمين لا شك فيه ، وولت قريش الأدبار عن معسكرها ، وتركت لواءها مطروحا وقد قتل عنه آخر من حملة منهم .
 تسرع رماة المسلمين فمالوا إلى معسكر قريش الذي ولت الأدبار عنه ، فكشفوا ظهور المسلمين لحيل المشركين التي لاحت لها الفرصة فكرت على المسلمين من حيث انكشفوا . . .

وتغير وجه المعركة .

ونقضت يهود ميثاقها مع الرسول هذه المرة أيضاً ، فلم تكن « على النصر ضدّ من حارب أهل هذه الصحيفة »
 وبنو النضير ، كانوا في منطقة المدينة .
 وقد لبثوا في أوكارهم يرقبون سير المعركة في أحد . . .
 وطاب لهم ما لقي المسلمون من عدوهم ، وتأهبوا لكي يُرجفوا في المدينة بقالتهم الحبيثة :

— انهزم محمد وأصحابه ، ويقول إنه نبي مرسل ؟ لو كان نبياً لَمَا انتصر عليه الوثنيون ! .

ثم هتفوا بأن يغتالوا الرسول !

خرج عليه الصلاة والسلام إلى بني النضير : يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر ، وكان بينهم وبين النضير حلف وجوار .

« قالت يهود : نعم يا أبا القاسم : نعينك على ما أحببت . . . »

ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فمن رجل " يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟ »

وصعد يهودي فألقى الصخرة ، لكن بعد أن كان المصطفى قد تحرك من مكانه .

ولم تزده فعالتهم علماً بغدرهم . لكنها زادتة تصميماً على حسم شرهم .

• • •

وعاد إليهم صلى الله عليه وسلم ، فحاصرهم ستَّ ليالٍ من شهر ربيع الأول ، من السنة الرابعة للهجرة . . .

واستسلموا ، بغير قتال ، لحكم المصطفى عليهم بالجلاء . . .

وتضرعوا إليه أن يدعهم يذهبون بما حملت الإبل .

فسمح لهم بها ، الرسول المنتصر .

وبلغ بهم الحرص ، أن راحوا ينزعون الأخشاب من دورهم ،

ليحملونها معهم . ومضوا بالنساء والأولاد وما حملت الإبل من مال ومتاع

إِنَّ عَشِيرَتَهُمْ فِي خَيْرٍ : ولم يكن دورها قد حان بعد

فكأنما كانوا في خروج الجلاء : في ضغطة الحشر !
 وصدق الله تعالى :

« هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ
 دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ
 مَا نَعْتَهُمْ حَصُونَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا
 وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ
 وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ * وَلَوْلَا أَنْ
 كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ
 عَذَابٌ النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ
 اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ »

خائبهم المعهود من حذرهم ، فسعوا إلى حتفهم بأظلافهم ومخالبهم ! .
 لقد ضاقوا بطول الانتظار . وعدوهم نبي الإسلام يبدو كمن لا يُقهر ،
 وإنه ليوشك أن يتقدم بهم إلى تيه تشردهم القديم ، بعد أن طاب لهم
 المقام في مستعمراتهم بالأرض الطيبة . شمال الحجاز ، أكثر من خمسة
 قرون .

أزمة « أحد » لم تكسر من معنوية جنوده ، بل أعطتهم المدرس-
 والعبرة ، وزادتهم إيماناً وثباتاً وإصراراً .

وقريش تبدو حذرةً مترددة ، وتود لو أعفها الظروف من الصدام
 مع جند الإسلام ، خوفاً من أن يضيع النصر الذي اختطفته في « أحد »
 من حيث توقعت أن تبوء بالهزيمة والعار .

ولم يُجد عليها هذا النصر المخطوف ، وإنما لتعلم علم اليقين أن بين
 رجالها من اهتز إيمانهم بالأوثان ، فان يلبثوا أن يلحقوا بإخوانهم الذين
 سبقوا إلى الإسلام ! .

* * *

ولاحت الفرصة ليهود بني قريظة :

بعثت وفداً من أحبارها إلى مكة ، يرُدُّ على المرتابين إيمانهم بألهتهم ،
 ويغري الوثنية العربية بحرب دين التوحيد .

قالوا لقريش :

« دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه . حاربوه ونحن معكم ! »
 فلما اطمأنوا إلى أن الوثنيين نشطوا لما دعواهم إليه من حرب نبي
 الإسلام ، خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان فدعواهم إلى

مثل ما دعوا إليه قريشاً : ووعدوهم المؤازرة والنصرة .

ثم تسللوا عائدين إلى أوكارهم في شمال الحجاز ، ومن وراءهم جيش المشركين : قريش وعليها أبو سفيان بن حرب ، والأحزاب من غطفان : بنى فزارة وبنى مرة ، وبنى أشجع بن ريث . . .

لكن مثل هذا التواطؤ لم يكن بحيث يخفى أمره . وقد علم المصطفى بمسعى يهود وما بيّنت من غدر ، فانتظر عليه الصلاة والسلام حتى فرغ من الأحزاب يوم الخندق ، ورجع بجنده إلى المدينة في ساعة الظهر فما كادوا ينفضون عن ثيابهم غبار المعركة ، حتى سمعوا دعاء المصطفى يعلو به صوت مؤذنه من المسجد النبوي :

« أيها الناس ، من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني

قريظة »

وتدفقت جموع المؤمنين إلى موعد الرسول : صلاة العصر في بني قريظة . . .

وصلوها هناك ، وقد لاذ الجبناء بمحصونهم التي ظنوا أنها مانعهم من الله .

وامتد الحصار خمساً وعشرين ليلة ، ثم أخرجهم الرعب منها ، مستسلمين لحكم نبي الإسلام .

ولكنه صلى الله عليه وسلم ، ترك الحكم لسعد بن معاذ ، نقيب الأوس . وقد حاول نفر من قومه أن يحملوه على الرفق بأعداء الإسلام وطالما ظاهرهم على الخزرج في الجاهلية .

قالوا :

« يا أبا عمرو ، أحسن إلى مواليك ، فإن رسول الله صلى الله

عليه وسلم إنما ولاك ذلك لتحسن إليهم »

فلما أكثروا عليه : ردّهم بقوله :

« أن لسعدٍ ألا تأخذه في الله لومة لأثم »

ونطق «سعد بن معاذ» بحكمه الصارم العادل على رجال بني قريظة ،

دون النساء والصبية . . .

حسماً لشهم الوبيل . وجزاءً وفاقاً على ما كان من غدرهم وكيدهم .

• • •

وذهبت بنو قريظة ، قصةً وعبرةً ومثلاً .

وتجاوبت الجزيرة بأصداء القصاصد التي قالها الشعراء فيهم وفيمن

حزّبوا من المشركين يوم الخندق ، وفي المنافقين .

وتلا المصطفى من وحى ربه ، من سورة الأحزاب :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ

جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ،

وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ

وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ

الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * أَهْئِنَّا لَنَبْتُلِي الْمُؤْمِنِينَ

وَزَلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا *

وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ،
 وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ
 بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا * وَلَوْ دَخَلْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ
 أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَّهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا *
 وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الأدْبَارَ ، وَكَانَ
 عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا * قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِنَ
 الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ مَنْ
 ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِن أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ
 رَحْمَةً ، وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا *
 قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا
 وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ
 رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ
 مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ
 أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ، أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ،
 وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ

يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوَالُو أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ
يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ ، وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا
قَلِيلًا * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ
كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا * وَلَمَّا
رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا *
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن
قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا *
لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ
أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَرَدَّ اللَّهُ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَىٰ اللَّهُ
الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ، وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا * وَأَنْزَلَ الَّذِينَ
ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ
الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ
وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّعُوهَا ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرًا ۝

وإذن فقد بدأ سُمّ النفاق يحدث أثره ويهدد الجبهة الإسلامية من داخلها ، في الوقت الذي كانت تخوض فيه معركتها مع العرب المشركين ، ومع عصابات يهود .

لكن المنافقين الذين انكشفوا يوم الخندق في غزوة الأحزاب ، لم يلبثوا أن شغلوا المجتمع الإسلامي عنهم بفرية الإفك التي هزت المدينة هزاً ، طول شهر كامل من أيام شعبان ورمضان في السنة السادسة للهجرة حتى حسمها القرآن الكريم بآيات النور :

« إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ ، لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِنَفْسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ » .

إلى قوله تعالى :

« وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّتِمْ وَتَقُولُونَ بِلُغْوِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ

وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ
 قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ
 عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ
 مُؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *
 إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا
 تَعْلَمُونَ »

...

وكان « عبدُ اللهِ بنُ أبي بن سلول » هو الذي تولى كِبْرَ هذا الإفك
 المبين
 في أم المؤمنين عائشة : أحب أزواج المصطفى إليه وأحظاهم
 عنده .

وبنت أبي بكر الصديق ، أقرب الصحابة إلى المصطفى وأعزهم
 عليه ، وأول السابقين إلى الإسلام ! .

فهل حانت المواجهة الحاسمة ، مع مرضى القلوب المنافقين ؟ .
 كلا ، بل يمكن أن تنتظر ريثما يأمن الإسلام شر يهود ويحسم المعركة
 مع الوثنية العربية .
 وهذه المعركة أيضاً ، تحتمل الهدنة بعض الوقت ، وقد عرقت

الهدنة في « الحديبية » في أواخر السنة السادسة للهجرة .

• • •

بعدها ، في مستهل السنة السابعة . كان مسير المصطفى إلى يهود « خَيْبَرَ » الذين سارعوا إلى حصونهم يحتمون بها ، فتساقطت حصناً بعد حصن ، حتى إذا لم يبق لهم سوى حصن الوطيح والسلام ، بعثوا وافدهم إلى نبي الإسلام يسألونه أن يحقن دماءهم ويكتفى منهم بالجللاء .

وأجاب المصطفى سؤالهم ، وتركهم يرجلون عن « خير » هائمين على وجوههم في الفلاة .

• • •

بعد سقوط خيبر ، انتهت قصة الاستعمار اليهودي لشمال الحجاز ، لم يبق من عصابتهم سوى فلول مبعثرة في فلك ووادى القرى وتبء ، حتى كان أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه ، هو الذى طهر جزيرة العرب من بقاياهم .

وعاد اليهودى التائه إلى ضلاله القديم ، يضرب فى التيه من بادية الشام ، تلفظه الأرض حيث أقام ، وتطارده اللعنة أينما حط أو سار . . .

• • •

في فترة الهدنة مع قريش . وبعد أن تطهرت المنطقة الإسلامية من
الوباء اليهودي ،

اتجه تفكير المصطفى إلى نشر دعوته خارج بلاد العرب ، فبعث
رسلا من أصحابه يكتب منه ، إلى الملوك والحكام لعهدده ، يدعوهم إلى
الإسلام بالحسنى ، امتثالا لأمر الله الذي بعثه إلى الناس كافة .

أرسل المصطفى « دحية بن خليفة الكلبي » إلى قيصر ، إمبراطور الروم

و « عبد الله بن حذافة السهمي » إلى كسرى ، ملك فارس .

و « عمرو بن أمية الضمري » إلى النجاشي : ملك الحبشة .

و « حاطب بن أبي بلتعة » إلى المقوقس ؛ عظيم القبط .

و « عمرو بن العاص » إلى ملكي عمان .

و « سليط بن عمرو » إلى ملكي اليمامة .

و « العلاء بن الحضرمي » إلى المنذر العبدي ، ملك البحرين .

و « شجاع بن وهب الأسدي » إلى الحارث الغساني بالشام .

و « المهاجر بن أبي أمية المخزومي » إلى الحارث بن عبد كلال الحميري ،

ملك اليمن . . .

ثم وجه المصطفى عناية خاصة إلى بلاد الشام ، حيث تمد إمبراطورية الروم سلطانها إلى شمال الجزيرة العربية ، وتفرض نفوذها المادى والمعنوى على أهل المنطقة . بالبطش والإرهاب .

وفى جمادى الأولى من سنة ثمان للهجرة ، جهز جيشاً لغزوة مؤتة ، أول غزوة سيرها المصطفى إلى خارج بلاد العرب . تأميناً لحدودها من ناحية الروم ، وتدريباً لجند الإسلام على لقاء عدو ذى صولة وصلف ، واتجاهاً بالدعوة الإسلامية إلى ما وراء الحدود .

واختار صلى الله عليه وسلم « زيد بن حارثة » أميراً على الجيش وقال :

« إن أصيب زيد ، فجعفر بن أبى طالب على الناس ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة على الناس »
كان عددهم ثلاثة آلاف . أسلحتهم الحربية السيوف والقبسى والرماح والنبل والسهام ،

وزادهم التمر والخبز الجاف وما قد يتبياً لحم من صيد . وساروا حتى نزلوا « معان » من أرض الشام ، فبلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء ، فى مائة ألف من الروم ، انضمت إليهم ألوف وألوف من لحم وجذام والقين وبهراء وبيلى .

وتشاور المسلمون فى خطر الموقف ، وكان رأى عدد منهم ألا يجازفوا بقاء الروم فى معركة غير متكافئة ، تفنى جند الصحابة ، بل يكتبون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإما أن يمدهم بالرجال ، أو يأمرهم بالعودة إلى المدينة .

لكن « عبد الله بن رواحة » أبى إلا أن يتقدموا للقتال لا ينكصون .

قال :

« يا قوم ، والله إن التي تكروهون لآلتى نخرجتم تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به . فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسينين : إما ظهور وإما شهادة »

هتف جند الإسلام : قد والله صدق ابن رُوَاحَةَ .

ومضوا حتى إذا بلغوا تخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل ، فانهز المسلمون إلى قرية « مؤتة » وقاتل زيد بن حارثة بلواء المصطفى حتى استشهد فتلقى جعفر بن أبى طالب اللواء بيمينه ، فقاتل به حتى قطعت ، فأخذه بشماله حتى قطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى استشهد .

وتلقى اللواء من بعده ، « عبدالله بن رُوَاحَةَ » فما تخلى عنه حتى استشهد ، فكانت له إحدى الحسينين التى أراد .

واختار المسلمون « خالدة بن الوليد » قائداً ، فلم ير أن يعرض جنده للفناء ، وظل يدافع الروم فى بسالة ومهارة وهو ينحاز بجنده حتى نجا بهم ، لم يتركوا من وراءهم غير ثمانية شهداء ، كانت دماؤهم الزكية هى التى مهدت أرض الشام للفتح الإسلامى بعد نحو عشر سنين !

• • •

استقبلت المدينة الجيش العائد من مؤتة بالغضب والإنكار ، وجعل الناس يحثون التراب على جنود خالد بن الوليد ويقولون :

— يا فُرَّار ، فررتم فى سبيل الله .

والمصطفى يرد عنهم الناس ويقول :

« ليسوا الفُرَّار ، ولكنهم الكرار إن شاء الله »

• • •

ويمضى وقت . نحو شهرين : جمادى الآخرة ورجب^١ ، فى بطن
مرهق بالتوتر : وعلى الأفق نذر .

لم يكن هناك يهود يلوكون حديث مؤتة ، ولكن المنافقين كانوا هناك
فى صميم المجتمع المدنى ، لا يكتفون شماتهم ولا يكفون عن سخرية بما
حسبوه تطاولا من المؤمنين إلى تخوم الروم .

وقريش تزداد حمقاً وتطاولا ، فتُظاھر بكرةً على خزاعة وترفدها
بالسلاح ، لا تبالى عهد الحديبية ، وفيه النص على « أنه من أحب أن
يدخل فى عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم فليدخل فيه ، ومن أحب
أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه »

وخزاعة كانت قد اختارت الدخول فى عقد الرسول وحلفه ، فبيَّنتها
« بكرةً » بالوتير ، وأمعنت فيها قتلا بسلاح قريش ! .

وتمهل المصطفى ، لعل قريشاً ترجع عن غيرها فيما تقضت من عهد
الحديبية ، بما ظاهرت بكرةً على خزاعة وهى فى عقد الرسول وعهده ! .

« المدينة » تهدر بالغضب والقلق والترقب . . .

والمصطفى هناك قد أخذ مجلسه بين أصحابه في مسجده، وما يدرى
أحد خطواته التالية . . .

وفجأة ، تعلقت الأبصار برجل ، يشق طريقه في زحام الناس حتى
يصل إلى مجلس الرسول عليه الصلاة والسلام ، فيقف عليه ، ويلتقط أنفاسه
من سفر بعيد .

وعرف المهاجرون فيه « عمرو بن سالم الخزاعي »
وانتظروا ماذا يكون من أمره ، فانصرف عمرو عنهم وابتدر المصطفى
ينشده مرتجزا :

يا ربَّ إني ناشدُ محمدا
حليفَ أينا وأبيه الأتلا
قد كنتمُ وُلدا وكنا والدا
ثمَّتَ أسلمنا فلم نترع يدا
فانصرُ هداك الله نصرًا أعتادا
وادعُ عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا
إن سيم خسفا وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يجرى مزلدا
إن قریشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا

وهم أذل وأقل عددا
 هم يتنونا بالوتير هُجَّدا
 وقتلونا ركعاً وسُجَّدا

قال عليه الصلاة والسلام : « نُصرت يا عمرو بن سالم »
 ثم قام يتجهز لفتح مكة . . .

. . .

الوقت مساء . . .

والمدينة ساهرة تحتشد للتعبة . وقد أوشك جند الإسلام على المسير
 إلى مكة .

ووافد من مكة . جاء يسعى حثيثاً حتى بلغ بيت أم المؤمنين « رملة » ،
 أم حبيبة بنت أبي سفيان « في دور النبي المحيطة بمسجده .
 واستأذن فدخل . وأم المؤمنين لا تكاد تصدق أنه والدها « أبو سفيان
 ابن حرب » !

هل جاء مباعاً ، بعد أن طال ضلاله وأهلك قومه ؟
 لو كان قد جاء مسلماً ، لما تردد في أن يعجل إليها بالبشرى ،
 فيضع حداً لما كابده من هم ، في موقفها بين زوجها وأبيها ! .
 وقد كان الموقف صعباً .

. . .

من قبل أن تشرف « رملة » بالزواج من المصطفى : آمنت به نبياً
 مع زوجها الأول « عبيد الله بن جحش » وهاجرت معه إلى الحبشة . فلم
 يلبث أن ارتد عن الإسلام ، وتركها تكاد تموت بقهرها ، لولا أن
 أساها عليه الصلاة والسلام . وشرفها بأن أرسل في خطبتها ؛ وتولى عمه
 « جعفر بن أبي طالب » عقد الزواج ، في مجلس النجاشي .

وعادت من مهاجرتها مع جعفر ، يوم فتح خيبر ، وأخذت مكانها الرفيع في بيت النبي ، فما كانت امرأة أعز منها بزواج وأشقى بأب !

فإن لم يكن أبوها قد جاء من مكة مبايعاً ، فلعله موفد من مشركي قريش ، يتوسل بابنته إلى زوجها نبي الإسلام ، ليجدد الهدنة التي نقضها القرشيون ؟

وانتظرت أم المؤمنين ، لم تدعُ أباهما إلى الجلوس حتى تعلم فيم جاء !

وتقدم هو من تلقاء نفسه ، فهممَّ بالجلوس على فراش هناك ، فسبقتة إليه أم المؤمنين وطوته عنه .

سألها وهو يتجاهل مغزى ما فعلت :

— يا بنية ، ما أدري أرغبتِ بي عن هذا الفراش ، أم رغبتِ به عني ؟

فما راعه إلا أن قالت :

« بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت مشرك تجسّس ، ولم أحب أن تجلس على فراشه صلى الله عليه وسلم »
قال أبو سفيان مقهوراً :

— والله يا بنية ، لقد أصابك بعدى شر !

وخرج بحسرتة ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ، مع جمع من أصحابه ، فيهم أبو بكر وعمر .

ووقف بين يدي المصطفى ، يعتذر عن قريش ويسأله أن يستبقي الهدنة ، فمأرد عليه المصطفى بكلمة .

واتجه أبو سفيان إلى الصديق أبي بكر ، يرجوه في أن يكلم النبي عليه الصلاة والسلام ، فما زاد الصديق على أن قال : « ما أنا بفاعل ! »

والتمس أبو سفيان الشفاعة عند الرسول ، من عمر بن الخطاب ،
فكان رد عمر :

« أنا أشفع لكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فوالله لو لم أجد
إلا الذرَّ لجاهدتكم به ! »

ونقل أبو سفيان بصره في القوم ، فما وجد إلا الصد والجفاء .

•••

وقاوم يأسه ، فخرج متعثراً في حيرته حتى بلغ بيت « علي بن أبي
طالب » صهر المصطفى وابن عمه ، فقص عليه ما كان من أمره مع ابنته
« رملة ، أم حبيبة » ، ثم مع الرسول وصاحبيه أبي بكر وعمر .

وقال يستنجد بابن أبي طالب ، ويذكر جدَّهما « قصي بن كلاب »
وللد عبد مناف وعبد شمس :

— يا علي ، إنك أمس القوم بي رَحِماً ، وإني قد جئت في حاجة
فلا أرجعن كما جئت خائباً ، فاشفع لي إلى صهرك وابن عمك »
ردَّ عليٌّ :

« ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم الرسول صلى الله عليه وسلم
على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . »

فالتفت أبو سفيان إلى « الزهراء » وكانت حتى هذه اللحظة صامتة
لا تشارك في حديث ، فقال لها وهو يشير إلى ابنها « الحسن بن علي »
سبَّط النبي :

« يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بِنَيْكَ هذا فيجير بين الناس
فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر »

ردت الزهراء :

« والله ما بلغ بُنَيَّ أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم »

ولم يبق إلا أن ينصرف . . .

غبر أنه لم يكن يدري إلى أين ، وقد أوصدت الأبواب في وجهه .
وتمهل برهة ، فقال لعلی :

« يا أبا الحسن ، إني أرى الأمور قد اشتدت علىّ ، فانصحني »
قال علی :

« والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك شيئاً ، ولكنك سيد في بني كنانة ،
فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك »
سأله :

« أو ترى ذلك مُغْنِيَا عني شيئاً ؟ »

فرد علی :

« والله ما أظنه ، ولكني لا أجد لك غير ذلك »

على ناقته « القصواء » التي خرجت به من غار ثور ، قبل ثمانين سنين . طريداً مستخفياً مهاجراً : أعزل إلا من إيمانه ، ليس معه غير صاحبه أبى بكر ، والله ثالثهما

دخل صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح ، في عشرة آلاف من جند الله . . .

وفتحت أم القرى قلبها للنبي العائد ، ومن معه من أبناءها المهاجرين ، وأصحابه الأنصار

ولم يدُرْ يوماً قتال ، وكأنما عاشت أم القرى في انتظار هذه اللحظة التاريخية ، لتحرر من أغلال الوثنية .

وكانما كان أهلها ، جيرة الحرم الأقدس ، يتطلعون إلى اليوم الذي يكفون فيه عن حرب عقيم ، بعد أن فقدوا إيمانهم بالأوثان التي حاربوا من أجلها ، فما أغنت عنهم شيئاً !

* * *

وعلى راحته ، طاف عليه الصلاة والسلام بالبيت العتيق سبعاً ، وسط الجموع الحاشدة من الناس . ثم ترجل فدخل البيت خاشعاً ، وقام يصلي بالمسلمين في الحرم المكي الذي تطهر يومئذ من رجس الأوثان .

وتجاوبت الآفاق بدعائه :

« الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله وحده ،
نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده »
والجموع من حوله تردد الدعاء ، فتخشع له صمُّ الجبال .

* * *

والتفت إلى أهل مكة ، بعد أن خطب خطبة الفتح ، فقال :

« يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ » .

قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم .

فقال عليه الصلاة والسلام :

« اذهبوا فأنتم الطلقاء »

وباتت مكة يوم الفتح ، وليس في حرمها رجلٌ ولا امرأة ، إلا

مسليماً أو مسلمة .

• • •

وأصبح الناس ذات يوم بعد الفتح ، وقد خرجت قالة من منازل الأنصار ، تعبر عن قلقهم ، أن يبقى المصطفى في مكة ؛ بعد أن رأوه يسخو في عطاء المكين ، تأليفاً لقلوبهم وهم حديثو عهدٍ بالإسلام . قالوا :

« لقد نبي والله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قومه » .

وبلغت قائلهم سمع المصطفى ، نقلها إليه « سعد بن عبادة » شاكياً

إليه عليه الصلاة والسلام ، ما تجد الأنصار من قلق وضيق .

سأله المصطفى :

« فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ » .

ورد نقيب الأنصار :

— يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومي ! .

فلم يضق عليه الصلاة والسلام بصاحبه ، بل طلب إليه أن يجمع له

قومه من الأنصار ، ثم خرج إليهم المصطفى فقال بعد أن حمد الله وأثنى

عليه :

« يا معشر الأنصار ، ما قالة بلغتني عنكم وجدةٍ وجدتموها علىَّ في

أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلّالاً فهداكم الله ، وعالةً فأغناكم الله ، وأعداء
فألف بين قلوبكم ؟ »

أجابوا : بلى . الله ورسوله أمرنّ وأفضل .

سألهم : « ألا تجيبونني يا معشر الأنصار ؟ »

فسألوا بدورهم بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المنّ
والفضل .

قال عليه الصلاة والسلام :

« أما والله لو شئتم لقاتم فلصدّقتم ولصدّقتم . أتيتنا مكذباً فصدقناك
ومخذولاً فنصرناك . وطريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك . أوجدتم يا معشر
الأنصار في أنفسكم . في لعاعة من الدنيا تألفتُ بها قوماً ليسلموا ووكلتكم
إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة
والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فو الذي نفس محمد بيده ،
لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار . ولو سلك الناس شعباً وسلكتُ
شعباً نسلكت شعب الأنصار ! اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار
وأبناء أبناء الأنصار »

فبكى القوم حتى أخذوا لحاهم ، وهتفوا مدعى إيمانهم :

« رضينا برسول الله قسماً وحظاً »

وكذلك بكى أهل مكة ، وقد علموا أن المصطفى يوشك أن ينصرف
إلى دار الهجرة التي اختارها منزلاً ومقاماً .

لكنه صلى الله عليه وسلم . تمهل في العودة مع الأنصار إلى المدينة ،
ريثاً يقضى على قليل الوثنية الناشبة في بعض القبائل العربية ، ومن أهمها
هوازن وثقيف .

وخرج المصطفى في غزوة حنين إلى هوازن . في الآلاف العشرة
الذين شهدوا معه فتح مكة ، ومعهم النان من أهل مكة .
وكادت مأساة «الأحد» تتكرر

بلغ القائد الرسول بجنده منحدرًا في واد من تهامة ، سبقهم إليه
المشركون من هوازن وأحلافها ، فكمنوا لهم في شعابه وأحنائه ومضايقه ،
ثم انحطوا بغتة في عماية الصبح ، فشدوا عليهم ، فولوا راجعين لا يلوى
أحد على أحد ، لم يبق منهم مع المصطفى سوى نفر من المهاجرين والأنصار
وأهل بيته .

يومها تكلم رجال من المنافقين ومن المكيين حديثي العهد بالإسلام
بما في أنفسهم من الضغن ، وقال أبو سفيان في شماته : لا تنهى هزيمتهم
دون البحر .

وعقب آخر ، جبالة بن الحنبل : ألا بطل السحر اليوم .

وبطل السحر حقًا ، لكنه سحر الغفلة والضلال .
تدارك المصطفى الموقف ، فأمر عمه «العباس بن عبد المطالب» -
وكان جهير الصوت - فصاح بالمسلمين يستنفرهم للجهاد مع نبيهم
المصطفى ، ويسترجعهم إلى أماكنهم حوله ، وإن واحدة من الصحابييات
«أم سليم بنت ملحان» لتثبت مع القلة المؤمنة وإنها لحامل بعبد الله بن
أبي طلحة . وقد حزمت وسطها ببردٍ لما تقى الإجهاض ، ومعها خنجر
مشهر . فيقول صلى الله عليه وسلم :
«أم سليم ؟»

وتجيب : نعم ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله . اقتل هؤلاء الذين
ينهمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك ، فإنهم لذلك أهل .

قال عليه الصلاة والسلام :

أورى كفى لئلا يا أم سليم ؟

ويسأخا زوجها أبو طلحة :

ما هذا الخنجر الذى معك يا أم سليم ؟

أجابت : خنجر أخذته . إن دنا منى أحد من المشركين

بِعَجْتَهُ بِهِ . . .

وعاد المسلمون على صوت النفير ، والتحم الفريقان وحمى الوطيس

فكان النصر للمؤمنين .

وكانت تجربة أخرى ، يذكرهم القرآن بها بعد غزوة تبوك ، فى

السنة التالية ، التاسعة للهجرة ، فيقول تعالى فى سورة التوبة :

«لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ

أَعْجَبْتَكُمْ كَثَرْتُمْ فَلَئِمَ تَغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ

الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ

سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا

وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ، ثُمَّ يَتُوبُ

اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

استغرقت هذه الأحداث الكبار . ما بين غزوة مؤتة وفتح مكة وغزوة حنين . شهور السنة الثامنة للهجرة ، من جمادى الأولى إلى ذى القعدة .

واعتمر المصطفى وعاد إلى المدينة كوعده للأنصار ، فأقام بها إلى آخر صفر من سنة تسع ، وقد نجم النفاق هناك وكثر الحديث عن « مؤتة » يلوك المنافقون فيه ما كان من غلبة الروم ، ويتندرون بسداجة الآلاف الثلاثة من المسلمين . يطمعون في منازلة الإمبراطور هرقل ، في مائة ألف من جنده !

وآن الأوان لتطهير دار الإسلام من جيوب النفاق التي كانت تُهدده في الصميم . بعد أن انتصر على الكفار من العرب ، والأعداء من يهود .

« « «

لقد كمن السم في أول الأمر ، وإن ظهرت بوادر منه في مثل إصرار « عبد الله بن أبي بن سلول » على أن يجير مواليه من يهود بني قينقاع ، ثم نشاطه الخبيث في فرية الإفك الذي تولى كبره .

وتتابعت البوادر مع ثقل أعباء الجهاد وتكاليفه ، في غزوة الأحزاب ، وغزوة مؤتة ، ويوم حنين ، منذرةً بأشد الخطر ، من حيث يخالط المنافقون الجنود المؤمنين ، ثم لا يملك أحد أن ينقيهم عن الإسلام وهم يتظاهرون به ويشهدون بأستهم أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، يحققون بهذه الشهادة دماءهم ويعتصمون بها من أن يرحمهم مؤمن بلعنة الردة .

والنوايا لله ، هو وحده الذي يعلم سرهم ونجواهم ، فليس للرسول إلا أن يكذبهم إليه سبحانه ، يحمي دينه منهم ويكشف المستور من كفرهم .

وقد جاءت « غزوة تبوك » فخرقت أقمعتهم ، بعد أن توالت النذر
منبهة إلى أن النفاق قد تمكن من مرضى القلوب حتى صار داء عياء
لا يجدى فيه غير البتر والتطهير

في مستهل رجب من السنة التاسعة للهجرة ، أمر المصطفى أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم . تشبيهاً لجنود الله في لقاء عدو مرهوب ، وليزِيل التَّهْيَب الذي تركته التجربة الأولى في مؤتة .

وأراد الله سبحانه أن تكون هذه الغزوة امتحاناً لإيمان المؤمنين ، وفاضحة لزيغ المنافقين المحسوبين على الإسلام زوراً وادعاء .

ولم يكن من عادة الرسول القائد ، أن يصرح بوجهته في كل مرة يخرج فيها بأصحابه للجهاد ، بل يكفي بالتكنية عنها ، تدريجاً لجنود الإسلام على الامتثال لأمر الله والرسول .

لكنه في هذه المرة ، صرح بوجهته لم يُكَنَّ عنها ، لبُعْدِ المسير وشدة الوقت وكثرة العدو الذي يصمد له ، حتى يتأهب المسلمون لذلك أهبتهم

وذلك في زمان من عسرة الناس وشدة من الحر ، وحين طابت الثمار بعد جذب ، فطاب للناس المقام في ثمارهم وظلالهم .

وبدأ المنافقون منهم ينتحون الأعذار للتخلف والقهود ، حتى إن أحدهم ليقول للمصطفى :

« يارسول الله، أوتأذن لي ولا تفتني؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشدَّ عجباً بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيتُ نساء بني الأصفر - الروم - أن لا أصبر! »

فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم وقال :

« قد أذنت لك » .

ودشى بعضهم إلى بعض ، يتواصون بالتعويد قائلين : « لاتنفروا في الحر »
 زهداً في الجهاد وشكاً في المصير ، وإرجافاً برسول الله صلى الله عليه وسلم .
 والبيت نفر منهم في أحياء المدينة يخذلون قومهم ويقولون :
 « أخسبون جلال بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ »

ولكن هؤلاء وهؤلاء ، لم يبلغوا من التخذيل والإرجاف ، ما بلغتة مكيدة
 كبيرهم « عبد الله بن أبي بن سلول » : لقد وجد اللعين فرصة العمر التي
 طال أنتظاره لها . فتظاهر بالتأهب للخروج ، وجمع إليه حشداً من
 شيعته أهل النفاق ومن اغتر بهم ، ثم ضرب عسكره على حدة وانتظر حتى
 تمت التعبئة للجهاد وخرج المصطفى بجنداه من مكة ، وما يشك أحد في أن
 « ابن أبي بن سلول » ماض وراءه بعسكره ، ولم يكن أقل العسكرين ! .
 لكن الخبيث تحرك ، لا إلى الشمال في طريق الجيش المجاهد ،
 وإنما انحاز بعسكره من أسفل مكة إلى الطريق المضاد ! .
 ودضى المصطفى بالمؤمنين من جند الإسلام ، وتخلف كل المنافقين ،
 وتخلف معهم نفر قليل من ذوى العذر ، ومن استثقلوا العبء ، عن غير
 شك ولا نفاق ! .

* * *

وفي الطريق لحق بالمصطفى بعض من لم يطيعوا القعود ولهم عذر فيه ، منهم
 اثنان من البكائين ، وهم سبعة من الصحابة التمسوا من رسول الله أن
 يحملهم وكانوا أهل حاجة ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« لا أجد ما أحملكم عليه »

فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون للجهاد .
 وحدث أن مر اثنان منهم بابن عمير بن كعب النضري ، وهما يبكيان
 فسألما عن أمرهما فقالا :

« جئنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه . »
فأعطاهما بعيراً له ، وزودهما شيئاً من تمر ، فارتحلا البعير ولحقا بجند المصطفى ! .

وكذلك لحق بهم من صحبا ضميره من غفوته ، فكره أن يقعد مع القاعدين وليس من أهل النفاق .

في الخبر أن « أبا خيثمة الأنصاري مالك بن قيس » رجع ذات يوم حار بعد مسير الرسول بأيام ، إلى أهله . فوجد امرأتين له في عريشين ببستانه ، قد رشت كل منهما عريشها وبردت له فيه ماء ، وهيات له طعاماً . فلما رأى ذلك كله أنكره « وقال يحدث نفسه :

« رسول الله صلى الله عليه وسلم في الضحى والريح والحر ، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهياً وامرأة حسناء ، في ماله مقيم ؟ ما هذا بالنصف ! »

ثم التفت إلى امرأته وقال :

— والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهيثا لي زاداً .
وركب راحلته ، وخرج يغذ السير حتى لحق بجند الإسلام في تبوك .

• • •

وفي الطريق أيضاً ، تخلف الرجل بعد الرجل ، ممن خرجوا في أول الأمر مكرهين ، ثم استقلوا مشقة السفر وعبء الجهاد .
ويقول الصحابة للمصطفى وهو ماض في طريقه إلى وجهته :

— يا رسول الله : تخلف فلان . . .

فيقول عليه الصلاة والسلام :

« دعوه ، فإن يك فيه خير فسيُلحقه الله تعالى بكم . وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه »

حتى قيل له مرة :

— يا رسول الله : قد تخلف « أبو ذرٌّ » وأبطأ به بعيره .

فقال المصطفى ، مثل ما كان يقوله في الرجل يتخلف .

لكن « أبا ذر » لم يتخلف مختاراً ، وإنما خذله بعيره بعد أن أبطأ به ، فما كان منه رضى الله عنه إلا أن أخذ متاعه فحمله على ظهره ، ومشى يتبع أثر الركب المجاهد .

فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في منزل ببعض مراحل الطريق ، نظر ناظر من المسلمين فلمح من بعيد شخصاً يمشى ، فقال : يا رسول الله ، إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده . قال عليه الصلاة والسلام وهو ينظر إلى الجهة التي يشير إليها صاحبه : « كن أبا ذر » .

فلما تأمله القوم ، قالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو ذر ! .

ورد المصطفى : « رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ويُبَعَثُ وحده . . . »

بلغ المصطفى بجنده المؤمنين مدينة « تبوك »
وهناك أتاه « يوحنا » صاحب أيلة ، فصالح نبي الإسلام وأعطاه
الجزية .

وكذلك أتاه أهل جرباء وأذرح ، فصالحوه على الجزية .
وتخلف « أكيدر بن عبد الملك النصراني » صاحب « دومة » فندب
له المصطفى « خالد بن الوليد » في كتيبة من جنده . فأخرج « أكيدر »
أنحاه في فرسان دومة للقاء كتيبة خالد ، ودار قتال سقط فيه أخو أكيدر
قتيلاً ، وانهزم فرسانه . .
وعاد خالد بن الوليد إلى معسكر المسلمين ، ومعه « أكيدر » ، قد
نزع عنه قباؤه وكان من ديباج مخصوص بالذهب .

قال المصطفى وقد رأى أصحابه يلمسون القباء بأيديهم ويتعجبون
منه :

« أتعجبون من هذا ؟ فالذي نفسي بيده ، لمناديل سعد بن معاذ في
الجنة ، أحسن من هذا »
ثم أطلق المصطفى صاحب دومة ، بمصالحة على الجزية .

* * *

ورجع المصطفى إلى المدينة ، بعد أن بنى مسجداً في « تبوك » وأقام
بها بضع عشرة ليلة ، لم يجاوزها إلى ما وراءها من أرض الروم .
فماذا عمن تخلفوا بالمدينة لم يخرجوا للجهاد ؟
أتاه المنافقون منهم ، يخلفون له ويعتذرون ، فلم يملك صلى الله عليه
وسلم إلا أن يقبل ظاهر عذرهم ، مفوضاً أمرهم إلى العليم بما يسرون
وما يعلنون .

وأما الذين تخلفوا تكاسلاً . عن غير شك ولا نفاق ، فلم يجدوا ما يعتذرون به . وكرهوا أن يضيفوا إلى ذنب القمود عن الجهاد : وزرَ اختلاق عذر يقدمونه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم : كما فعل المنافقون .

وأنكر صلى الله عليه وسلم تخلفهم بغير عذر ، ونهى أصحابه أن يكلموا أحداً منهم حتى يقضى الله فيهم ، وكانوا ثلاثة : « كعب بن مالك ، ودرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية » صدقوه القول أن لم يكن لهم عذر . ونبذهم المجتمع الإسلامي نبذاً أليماً . وكابدوا من تأنيب النفس اللوامة ، ما الموت أهون منه وأرحم ، وأترك لأحدهم « كعب بن مالك الأنصاري » أن يصف محنته وصاحبيه ، فيما روى ابن إسحق بالسيرة النبوية ، عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب عن أبيه قال :

« ما تخلفتُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها قط ، غير أني تخلفت عنه في بدر ، وكانت غزوة لم يعاتب الله ولا رسوله أحداً تخلف عنها . . . »

« ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبَةَ ؛ حين تواتقنا على الإسلام ، وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت غزوة بدر هي أذكرُ في الناس منها . »

« وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة . . . »

« وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يرياد غزوة يغزوها إلا ورَى غيرها ، حتى كانت تلك الغزوة ، فغزاها صلى الله عليه وسلم في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ، واستقبل غزوة عدو كثير ، فجلبى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبطه . والمسلمون كثير . لا يجمعهم كتاب حافظ -

أى ديوان مكتوب - فقلَّ رجلٌ يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ذلك ، ما لم ينزل فيه وحى من الله . . .

« فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجهز المسلمون معه . وجعلت أغدو لأتجهز معهم فأرجع ولم أقض حاجة فأقول في نفسي : ”أنا قادر على ذلك إذا أردت“ فلم يزل ذلك يتأدى بى حتى شمر بالناس الجدد ، فأصبح صلى الله عليه وسلم غادياً والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازى شيئاً . فقلت لنفسي : أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحق بهم .

فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئاً ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً . فلم يزل ذلك يتأدى بى حتى أسرعوا وتفردت الغزو يعنى - فات وسبق - فهتمت أن أرتحل فأدركهم ، وليتني فعلت ، فلم أفعل .

« وجعلت إذا خرجت في الناس بالمدينة بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفت فيهم ، يحزنى أنى لا أرى إلا رجلاً مطعوناً عليه في النفاق ، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء .

« ولم يذكرنى صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم : ”ما فعل كعب بن مالك؟“ فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله ، حبسه برُده والنظرُ في عطفه ، فقال له معاذ بن جبل : بشس ما قلت ! والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيراً .

فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلاً من تبوك . حضرني بشى ، فجعلت أتذكر الكذب وأقول : ”بماذا أخرج من نسخة رسول الله صلى الله عليه وسلم غداً؟“ وأستعين على ذلك كل ذى رأى من أهلى . فلما قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظلم قادماً ، زاح

عنى الباطل وعرفت أنى لا أنجو إلا بالصدق . فأجمعت أن أصدقه .
 وصبح رسول الله المدينة . وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه
 ركعتين ثم جلس للناس . فلما فعل جاءه المخنفون فجعلوا يخلفون له ويعتذرون .
 وكانوا بضعة وثمانين رجلاً . فيقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم
 علانيتهم وأيمانهم ويستغفر لهم . ويكبل سرائرهم إلى الله تعالى . حتى
 جئت فسلمت . فتبسم تبسم المغضب . ثم قال لى : "تعاله" فجئت
 أمشى حتى جلست بين يديه فقال لى :
 "ما خلفك ؟ ألم تكن ابتعت ظهرك ؟"

قلت : إني يا رسول الله . والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا
 لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعدر . ولقد أعطيت جدلاً . ولكن والله
 لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثاً كذباً لترضين عني ، وليوشكن الله
 أن يسخطك علي . ولئن حدثتك حديثاً صدقاً تجد علي فيه ، إني لأرجو
 عقبى من الله فيه . ولا والله ما كان لى عذراً ! والله ما كنت قط أقوى
 ولا أيسر منى حين تخلفت عنك ! .
 « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أما هذا فقد صدقت فيه ،
 فقم حتى يقضى الله فيك" »

فقمتم : وثار معى رجال من بنى سلمة فاتبعونى فقالوا لى :

"والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا . ولقد عجزت أن
 لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به إليه
 المخلفون . قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم
 لك"

« فوالله ما زالوا لى حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه
 وسلم . فأكذب نفسى . ثم قلت لهم :
 هل لى هذا أحد غيرى ؟

قالوا : نعم ، رجلا ن قالامثلك : مرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية الواقفي .

« فذكروا لي رجلين صالحين فيهما أسوة ، فصممت حين ذكرهما لي . وهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة ، من بين من تخلف عنه . فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لي نفسى والأرض ، فما هى بالأرض التى كنت أعرف .

فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحبى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج وأشهد الصلوات مع المسلمين وأطوف بالأسواق ولا يكلمنى أحد . وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى : "هل حرك شفثيه برد السلام على أو لا ؟" ثم أصلى قريباً منه فأسارقه النظر ، وإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى .

« حتى إذا طال ذلك على من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسورت جدار حائط "أبى قتادة" وهو ابن عمى وأحب الناس إلى ، فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام . فقلت :

— يا أبا قتادة ، أنشدك بالله ، هل تعلم أنى أحب الله ورسوله ؟ .

فسكت . فعدت فناشدته مرة بعد مرة ، فسكت عنى ، فعدت فناشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم .

« ففاضت عيناي ، ووثبت فتسورت الحائط ثم غدوت إلى السوق ، فبينما أنا أمشى إذا نبطى يسأل عنى من نبط الشام ، فجعل الناس يشيرون له إلى ، حتى جاءنى فدفع إلى كتاباً من ملك غسان ، فيه :

«أما بعد . فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفأ . فالحق بنا نرأسك» .
 قلت حين قرأتها : وهذا من البلاء أيضاً ، قد بلغ بي ما وقعت فيه
 أن طمعني رجل من أهل الشرك ! .

فعمدت بالرسالة إلى تنور فمجرته بها .

فأقمنا على ذلك حتى إذا مضت أربعون ليلة ، من الحسين ،
 إذا رسول رسول الله يأتي بأمره أن أعتزل امرأتي . قلت : أأطلقها أم
 ماذا ؟ قال : لا ، بل اعتزلها ولا تقربها .

وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك .

فقلت لامرأتي : ألحق بأهلك فكوني عندهم حتى يقضى الله في
 هذا الأمر ما هو قاض .

« وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت :
 يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له ، أفكره
 أن أخدمه ؟

قال : لا ، ولكن لا يقربنك .

قالت : والله يا رسول الله ما به من حركة إلى . والله ما زال يبكي
 منذ كان من أمره ما كان إلى يومنا هذا ، ولقد تخوفت على بصره
 فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله لامرأتك ، فقد أذن
 لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه .

قلت : والله لا أستأذنه فيها ، ما أدري ما يقول صلى الله عليه وسلم
 لي إذا استأذنته فيها ، وأنا رجل شاب .

« فلبثنا بعد ذلك عشر ليال ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهي
 رسول الله المسلمين عن كلامنا . ثم صليت الصبح . صبح خمسين

ليلة : على ظهر بيت من بيوتنا . . . إذ سمعت صوت صارخ أوفى
على ظهر سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ، أبشِرْ .
فخزرت ساجداً وعرفت أن قد جاء الفرج .

ونزعت ثوبى فكسوتهما من جاء يبشرنى ، والله ما أملك يومئذ غيرهما .
واستعرت ثوبين فلبستهما ثم انطلقت أتيمم رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وتلقانى الناس يبشرونى بالتوبة . . . حتى دخلت المسجد ، فلما سلمت
على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لى ووجهه يبرق من السرور :

— ”أبشِرْ بخير يومٍ مدرَّ عليك منذ ولدتك أمك“

قلت : أمن عندك يا رسول الله ، أم من عند الله ؟

قال : ”بل من عند الله“

قلت : يا رسول الله ، إن من توبتى إلى الله عز وجل أن أنخلع من
مالى ، صدقة إلى الله وإلى رسوله .

قال صلى الله عليه وسلم : ”أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك“

وقلت : يا رسول الله ، إن الله نجانى بالصدق ، وإن من توبتى إلى

الله أن لا أحدث إلا صدقاً ما حييت «

» « «

الآيات التى بٌشِر بها هؤلاء الثلاثة الذين خلفهم الرسول حتى يقضى

الله فيهم ، هى آيات التوبة :

«لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ

اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ

مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى

انشَلَاتَكَ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا
 رَحَبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ
 اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا . إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ
 الرَّحِيمُ ﴿ ١١٧ : ١١٨ ﴾

ونزلت معها ، من سورة التوبة في أواخر العهد المدني بعد غزوة تبوك ،
 الآيات البينات « الفاضحة » لزييف المنافقين الممزقة لكل أقدعتهم .
 وفيها يعتب الله سبحانه على رسوله أن أذن لهم في التخلف . وكان ، لو لم
 يفعل ، بحيث يكشف عن خبث سريرتهم ويتبين له كفرهم وارتبابهم .

« لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّا تَبَعُوكَ ،
 وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ، وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ ائْتَمَطْنَا
 لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ، يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ
 لَكَاذِبُونَ » عَمَّا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكِ الْ
 الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ * لَّا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ
 يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ
 وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رِيبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ *
 وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ
 فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا
 زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ
 وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * لَقَدْ ابْتَغُوا
 الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ
 أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا
 تَفْتِنِي ، أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ
 بِالْكَافِرِينَ * إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسْمُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ
 يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ *
 قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ، وَعَلَى
 اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى
 الْحُسْنَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ
 مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْيَدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ۝ ٤٣ : ٥٢

وتمضى الآيات بحكم الله فيهم : تنفيهم عن الإسلام أحياء وأمواتاً ،
وتعزيمهم عن مخالطة المؤمنين وتحريم خروجهم معهم إذا خرجوا للجهاد ،
حسماً لشر الفتنة . ونهى نبي الإسلام نبياً باتناً عن أن يستغفر لهم أو
يصلى على أحدٍ مات منهم أبداً أو يقوم على قبره :

« اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ
سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ . وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ * فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ
بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ، قُلْ
نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ، لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا
وَأَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ
إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا
مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ
أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ * وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ
مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ * » (٨٠ : ٨٤)

ثم يقول جل شأنه في نفس السورة .

«لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَأَمْ أَنْغِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ، قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » - ٩١ : ٩٦

كانت غزوة « تبوك » في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة .
بعدها . فيما بين من شهور السنة ، تتابعت وفود القبائل العربية
على دار الهجرة . ضاربة إليها من كل وجه ، تباع المصطفى على الإسلام
حتى سميت هذه السنة التاسعة « سنة الوفود » .

أسلمت ثقيف ، وكانت قد امتنعت بالطائف يوم حنين .

وقدم وفد همدان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مَرَجِيعَهُ من
تبوك .

وجاء وفد بنى تميم ، وفيه : قيس بن عاصم ، وعطار بن حاجب ،
والأقرع ابن حابس ، وعمرو بن الأهم ، والزبرقان بن بدر .

وجاء ضمام بن ثعلبة ، في وفد بنى سعد بن بكر .

والبحارود بن عمرو : في وفد عبد القيس .

والأشعث بن قيس ، في وفد كندة .

وصرد بن عبد الله ، في وفد الأزد .

كما قدم وفد طيء ، فيهم سيدهم « زيد الخيل » الذي قال فيه
رسول الله :

« ما ذُكِرَ لى رجلٍ من العرب بفضلٍ ، ثم جاعنى إلا رأيتُه دون
ما يقال فيه ؛ إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه »

ثم سماه عليه الصلاة والسلام : زيد الخير .

وجاء رجال من بنى زبيد ، فيهم عمرو بن معديكرب

ووفد بنى حنيفة فيهم « مسيلمة بن حبيب » الكذاب

قال ابن إسحاق ، في سنة الوفود :

« وإنما كانت العرب ترتبص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم ، وأهل البيت الحرام ، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وقادة العرب ، لا يُنكر ذلك . وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافه ، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش . . . دخلوا في دين الله ، كما قال عز وجل ، أفواجاً ، يضربون إليه من كل وجه .

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم :

« إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ

فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ
كَانَ تَوَّاباً »

الوداع ...

والرحيل

تظهرت ديار الإسلام من وباء يهود ، أعداء البشر
وتطهرت أرض المبعث وبلاد العرب من رجس الوثنية ، وسقطت أقنعة
المنافقين ، وعزلوا عن المجتمع الإسلامي
ودخل الناس في دين الله أفواجاً .

فهل بقي من رسالة المصطفى ما يؤديه في عصر مبعثه ؟

بعد سنة الوفود ، حج صلى الله عليه وسلم حجة الوداع في السنة
العاشرة للهجرة ، وعلم المسلمين مناسك حجهم ، وخطب فيهم خطبته
المشهورة التي كانت الوصية الأخيرة إلى المسلمين من نبيهم المصطفى عليه
الصلاة والسلام ، قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أيها الناس ، اسمعوا قولي فإنني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي
هذا بهذا الموقف أبداً .

أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا
ربكم ، كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا . وإنكم ستلقون
ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة
فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإن كل ريباً موضوع ، ولكن لكم
رعوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا
عباس بن عبد المطلب موضوع كله . وإن كل دم كان في الجاهلية
موضوع . وإن أول دماءكم أضع ، دم ابن ربيعة بن الحارث بن
عبد المطلب - وكان مسترضعاً في بني لبيث فقتلته هذيل - فهو أول
ما أبداً به من دماء الجاهلية .

« أما بعد أيها الناس ، فإن الشيطان قد يش أن يُعبد بأرضكم

هذه أبداً . ولكنه إن يُطَعَّ فيما سوى ذلك فقد رضى بما تحقِّرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم »

وبعد أن بيَّن المصطفى إبطال الإسلام للنسب . وحدد الأشهر الأربعة الحرام ، أوصى بالنساء خيراً ، ثم ختم خطبة الوداع بقوله :

« فاعقلوا أيها الناس قولي فإنني قد بلغت . وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً . أمراً بيناً : كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس ، اسمعوا قولي واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرئٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟ »

هتف المسلمون جميعاً ، ممن شهدوا حجة الوداع : اللهم نعم .

فقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم اشهد »

• • •

ثم قفل المصطفى ، فأقام بالمدينة بقية ذي الحجة والمحرم وصفر . . . وفيها جهز « أسامة بن زيد بن حارثة » ليخرج إلى الشام في جند الإسلام . ومعه المهاجرون الأولون . . .

وأمره صلى الله عليه وسلم ، أن يصل بالإسلام إلى تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين .

وبدا كأن المصطفى أتم رسالته ، وترك للمؤمنين من بعده أن ينشروا الدين الحق في الآفاق ، وأن يحملوا لواءه الميمون إلى المشرق والمغرب

• • •

ثم يموت محمد بن عبد الله ، ويحيا المصطفى في رسالته نبي الإسلام
المبعوث خاتماً للأنبياء ومصداقاً لما بين يديه من الدين كله .
وتكون آيته ، بعد أن أتم رسالته ، أن يجوز عليه المرض والموت ، كما
جازت عليه أعراض البشرية وهومها وعواطفها ، من حزن وثكل وحب وكره
وضيق وكرب ، مثلما تجوز على سائر البشر .
لكيلا يُفتن به المسلمون فينسوا أنه بشر رسول ، كما فتن من قبلهم
فاتخذوا نبيهم مع الله إلهاً .

* * *

في ليالٍ بقين من صفر ، في السنة الحادية عشرة للهجرة ، شكى محمد
صلى الله عليه وسلم ، من مرض ألم به ، فحسب آل البيت النبوي والمسلمون
معهم ، أنها وعكة طارئة لا تلبث أن تزول ، دون أن يتصور أحد منهم أنه
مرض الموت .

وثقل عليه المرض ، واستأذن «محمد بن عبد الله» نساءه أمهات المؤمنين
أن يُمرّض في بيت عائشة ، وقال :
« مرّوا أبا بكرٍ فليُصلِّ بالناس »

* * *

ولم يطل عليه المرض . . .
أهل شهر ربيع الأول ، وخرج أهل المدينة لصلاة الصبح من يوم
الاثنين ، فبيناهم في المسجد وأبو بكر يصلي بهم ، رُفِعَ السُّر من باب
بيت أم المؤمنين عائشة ، وخرج الرسول عاصباً رأسه ، فما كاد الناس
يلمحونه حتى كادوا يفتنون في صلاتهم برؤيته فرحاً به ، لولا أن أشار
إليهم أن « اثبتوا على صلاتكم »
وشعر أبو بكر بما كان من المصلين خلفه ، فعرف أنهم لم يصنعوا
ذلك إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنكص عن مصلاه يفسح

مكانه لمصطفى . لكنه دفعه وقال : « صلِّ بالناس » .

وجلس صلى الله عليه وسلم عن يمين أبي بكر : فصلى قاعداً ، حتى إذا قضيت الصلاة أقبل المسلمون على نبيهم المصطفى فرحين مستبشرين ، يهابون ويدعون ويباركون . . .

لم يدروا أنها صحوة الموت ! .

دخل المصطفى بيته والوقت ضحى ، فاضطجع على فراشه في حجره .
زوجه عائشة . فما راعها إلا أن ثقل في حجرها ، ونظرت في وجهه فإذا
بصره قد شخص وهو يقول : « بل الرفيق الأعلى من الجنة »

« » «

من بيت المصطفى علا نحيب النساء فصاك مسمع المدينة التي
كانت قد استبشرت برؤية الرسول عليه الصلاة والسلام في صلاة الصبح
من ذلك اليوم !

وفي ذهول المباغثة ، وجم الناس بين مصدق ومكذب ، وكان
« عمر بن الخطاب » أشد من أنكروا أن يكون محمد صلى الله عليه قد
مات .

وجاء أبو بكر ، وعمر في المسجد يتوعد من يزعم أن رسول الله قد
مات ، قال ، عفا الله عنه :

« إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد
توفي ! وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما مات ، ولكنه ذهب إلى
ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع
إليهم بعد أن قيل قد مات ، والله ليرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم
كما رجع موسى ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم مات ! »

تركه أبو بكر لم يكلمه ، ومضى لا يلتفت إلى شيء حتى دخل على المصطفى في بيت ابنته عائشة ، فإذا هو مسجى هناك . فأقبل عليه محزوناً حتى كشف عن وجهه فقباه ، وقال : « بأبي أنت وأمي ، أما الموتة التي كتب الله عليك . فقد ذقتها . ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً » .
ثم ردة البُردَ على الوجه الحبيب .

وخرج إلى الناس المحتشدين في المسجد . وعمر ما يزال يكلمهم . فدنا منه وقال مترففاً ، قد أحس ما أخذ ابن الخطاب من وقع الصدمة :
« على رسلك يا عمر ، أنصيت ! »
فلما لم يلتفت إليه ، أقبل على الناس فحمد الله وأثنى عليه ،
ثم قال :

« أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » .
ثم تلا الآية المحكمة :

« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ »

فكان الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت ، حتى تلاها أبو بكر يومئذ

أما عمر بن الخطاب ، فما هو إلا أن سمع أبا بكر تلاها ، حتى وقع إلى الأرض ما تحمله رجلاه ، وقد عرف أن «محمد بن عبد الله» قد مات ..

جنيزوه نذرحيل يوم ثلاثاء .
 ثم فتحوا باب بيته لألوف منسفين . فدخلوا عنده يودعونه ويرسلون
 عليه أرسالا . الرجال منهم أولا . ثم النساء . ثم الصبيان .
 ودفنوه حيث قبضن . في بيت زوجته عائشة بنت أبي بكر .
 رفعوا فراشه فحشروا له تحته . ثم أضجعوه هناك في ليل الأربعاء من
 ذلك الشهر . ربيع الأول . السنة الحادية عشرة من هجرته .

دفنوا محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي . . .
 وعاش الرسول صلى الله عليه وسلم . خاتم الأنبياء . . .
 ذلك الذي اصطفاه الله فأرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين
 كله ولو كره الكافرون .
 في فجر تلك الليلة الغراء من شهر رمضان المبارك ، التي خرج فيها
 مع النور البازغ يتلو الكلمات الأولى من هذا القرآن :
 معجزة نبوة ، وكتاب شريعة ، ولواء عقيدة وجهت التاريخ وحررت
 الإنسان .

والنور الذي حدا مسرى البشرية الأمية من ايل الجاهلية .
 وقاد مسعاها إلى آفاق المثل العليا للحق والخير والجمال . . .
 « هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ
 آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ . وَإِنْ كَانُوا
 مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »